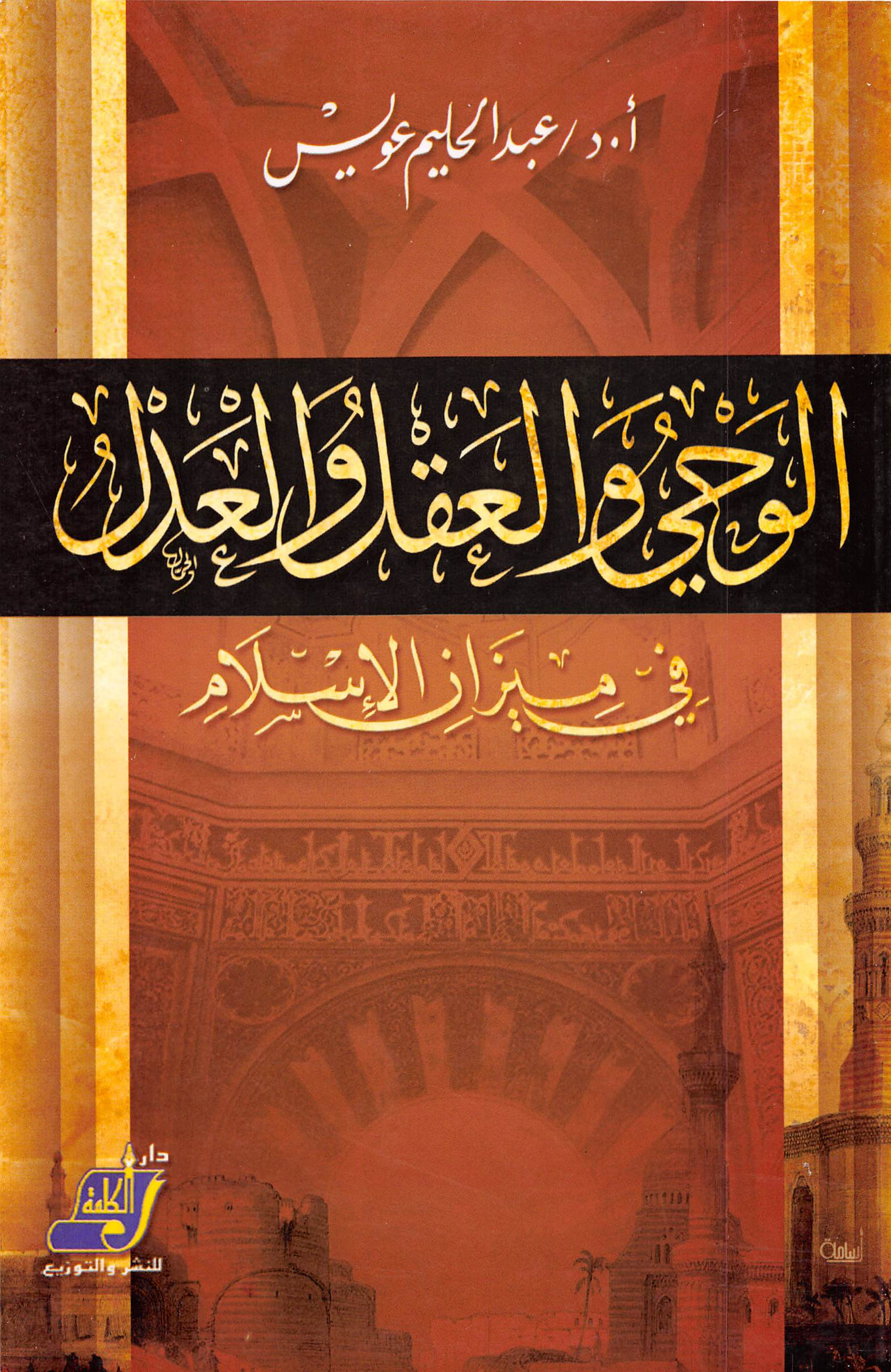


أ.د/ عبد الحليم عويس
الوحي والعقل والعدل
في ميزان الإسلام
دار الكلمة للنشر والتوزيع



أ . د / عبد الحليم عبد الفتاح محمد عويس

(وشهرته د/ عبد الحليم عويس)

- حصل على ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية من جامعة القاهرة (كلية دار العلوم) سنة ١٩٦٨م بمرتبة الشرف الثانية
- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م
- حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (مارس ١٩٧٨) بمرتبة الشرف.
- عمل بجامعه الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من ١٩٧٤ حتى ١٩٩٤
- عمل أستاذاً زائراً لعدد كبير من الجامعات في الهند وباكستان ، وماليزيا ، والجزائر ، وتونس ، والسودان، وتركيا ، وغيرها
- حضر أكثر من مائة مؤتمر عالمي ، ومؤتمرات أخرى إقليمية
- أشرف على نحو ٧٥ رسالة ماجستير ودكتوراه في الحضارة والتاريخ فى جامعات مصر و جامعه الامام محمد بن سعود
- عمل نائب رئيس الجامعة الإسلامية بروتردام (هولندا)
- له أكثر من ٧٥ مؤلف شملت موسوعات فقهيه وتاريخية وحضاريه وتفاسير للقرآن

* * * *

- عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية.
- عضو مؤسس لرابطة الأدب الإسلامي فرع القاهرة ،
- عضو مجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية .
- رئيس تحرير مجلة التبيان بمصر .
- عضو اتحاد الكتاب بمصر .
- عضو نقابة الصحفيين .
- عضو اتحاد المؤرخين العرب .

usamata



دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة - المنصورة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥ / ٠٢ ..

المنصورة . ص.ب : ١٦٧

الوحي والعقل والعدل
في ميزان الإسلام

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بطاقة الفهرسة

عويس ، عبد الحليم

الوحي والعقل والعدل في ميزان الإسلام —

دكتور/ عبد الحليم عويس . ط١. المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠م

١٩٢ص ، ٢٠سم

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٣٦٣٨

الترقيم الدولي : 9 - 348 - 311 - 977 - 978

دار الكلمة للنشر والتوزيع

المنصورة - ص.ب. : ١٦٧ ت ف : ٢٢٣٤٥٠٣ / ٠٥٠

محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

e_mail:mmaggour@hotmail.com

الوحي والعقل والعدل في ميزان الإسلام

دكتور
عبد الحليم عويس




بسم الله الرحمن الرحيم



العدل .. شرع الله

كان مصطلح « العدل » وما يزال من أهم المصطلحات في تاريخ الإنسان ، وهو مصطلح شامل يتضمن العدل بين الحاكم والمحكومين ، وبين الفرد والجماعة الكبيرة وهي المجتمع ، والجماعة الصغيرة وهي الأسرة ، بل إن الإنسان مطالب أن يعدل في حق نفسه ، ولا يظلم نفسه وأن يعدل في حق الله فلايشرك معه غيره .

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] .

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[2] .

وفي فقه السياسة الشرعية أن (الحاكم العادل) غير المسلم ، أو غير التقيّ أفضل للأمة من الحاكم المسلم الظالم ، وقد علّل فقهاء السياسة الشرعية ذلك بأن الحاكم العادل للأمة عدل للأمة وعليه كفره أو فسقه ، وأما الحاكم الظالم فعلى الأمة ظلمهُ ، وله دينه أو تقواه الشخصية !!

ـ والأمة الظالمة يُسلط عليها من يهزمها ، حتى ولو تظاهرت بالإيمان بينما يمهل الله الأمة الكافرة العادلة !!

والحضارة الحديثة ما ضلت إلا عندما نظرت إلى (العدل)

---

(١) لقمان : ١٣ .

(٢) الطلاق : ١ .

نظرة تمزيقية فقررته في بلادها وبين مواطنيها إدراكًا منها لأهميته ، ولكنها ظلمت الشعوب الضعيفة واحتلتها وأذلتها وفرضت عليها التخلف والتبعية ، وحرمتها من التعليم والإبداع الكفيلين بتقدمها ، بل إنها تظلم – نسبيًا– العناصر الوافدة على بلادها وتمنعها من تكوين المؤسسات الكفيلة بحماية هويتها ، فعْدلها عدلُ مصالح ، وليس عدل عقيدة وأخلاق!!

ـ لكن (العدل) في الإسلام ركن من أركان تنظيم الإسلام للحياة ، وهو مقصد من المقاصد الشرعية التي يجب أن تدور الأحكام في فلكها .. فحيثما تحقق العدل فهناك شرع الله ، ولا يمكن أن تتعارض هذه الأحكام مع هدف كبير من أهداف الحياة ، والبشرية بتجاربها النسبية تريد عدلًا نسبيًا لا يضر بمصالحها ، لكن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين ، والذي يعلن أن الإنسانية في خُسْران مبين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر في إقامة الحق...

ـ هذا الإسلام يقيم دعائم الحق مع الحبّ والكره ومع النفع والضرر ، ومع المصلحة وانعدام المصلحة ، وبين المرأة والرجل ، والفرد والمجتمع ، وفي الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على حد سواء .

ـ وقد درج الناس على استعمال كلمة (العدل) في مستواها السياسي والاجتماعي ، وكثيرًا ما يقيمون الثورات والنقابات والأحزاب من أجل جانب واحد من العدل ، وبالتالي يتم التركيز على هذا الجانب فيقع الظلم في الجوانب الأخرى .

ـ وانطلاقًا من تجربة العصور الوسطى الأوروبية ركزّ الغربُ على العدل الاقتصادي والاجتماعي ، فأخطأ الطريق ، لأنه تصور أن الفرد هو الذي يظلم المجتمع فسحق الفرد تحت مظلة الشيوعية ، وتصور ـ مرة من خلال تجاربه النسبية ـ أن المجتمع هو الذي يظلم الفرد فسحق المجتمع والأخلاق تحت مظلة الرأسمالية ، وأصبح مفهوم «الحرية» كرة يتداولها الفريقان كأنهما في ملعب !!

بَيْدَ أن الإسلام وازن في عدْله بين جميع القوى الفاعلة في الحياة ، وأعطى كل ذي حق حقه ، فأصبح مفهوم «الحرية» منضبطًا متوازنًا لا يطغى فيه المجتمع على الفرد ولا الفرد على المجتمع ، وأصبح مفهوم «المساواة» مفهوما شرعيًا مرتبطًا بالعدل ، فالعدل هو الميزان الذي يضبط حركة الحرية وحركة المساواة ، وهو أيضًا الضامن لتحقيق إنسانية كل الناس وكرامة البشر كلها .

* * *

- لقد جاءت تعاليم الإسلام تكرم كل الناس بصفاتهم الإنسانية ، بصرف النظر عن أصولهم وألوانهم وأديانهم ... يقول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

- ويقول الله أيضا : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2].

- ويقرر الإسلام في شريعته العدل لكل الناس ، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم ومدى قربهم من الإنسان أو بعدهم عنه ... يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[3] .

ويقول الله تعالى أيضًا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[4].

وإذا كان الإسلام قد قرر كرامة الإنسان وأفضليته بصفته

---

(١) الإسراء : ٧٠ .

(٢) التين : ٤ .

(٣) المائدة : ٨ .

(٤) النساء : ٥٨ .

الإنسانية المطلقة المجردة ، كما أنه قرر العدل بين كل الناس بصفتهم الإنسانية ، بعيدًا عن النظر إلى أديانهم وأجناسهم ـ فإنه قد قرر أيضًا حرية الإنسان الدينية بصفة خاصة ، حيث إن جوهر الأديان الصحيحة النازلة من السماء واحد لا يمكن أن يتناقض ... يقول الله تعالى في القرآن للرسول عليه السلام مؤكدًا هذه الحقيقة ومعترفًا بهذه الأديان السماوية الصحيحة السابقة ، ومطالبًا كل الأديان : (الإسلام والمسيحية واليهودية) بالاحتكام إلى الحق والعدل .. يقول تعالى :

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

ويقول : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم ﴾[2] .

ويقول : ﴿شَرَعَ لَكُم ﴾ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) فصلت : ٤٣ .

(٢) المائدة : ٤٨.

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[١].

فالإسلام مكمل للأديان السابقة وخاتم لها ، ومطهرها مما أصابها من أهواء الناس ، والمدافع الأعظم عن كرامة كل الأنبياء عليهم السلام ومصداقيتهم ... !! ـ بالإضافة إلى هذه النظرة الكريمة السمحة إلى الأديان السابقة يؤكد الإسلام – عبر آيات قرآنية وأحاديث نبوية ـ كثيرة ـ حرية العقيدة لكل الناس ، فيقول الله في القرآن :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[٢].

ويقول القرآن أيضًا : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ ﴾[٣].

ويقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[٤].

ويقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ

---

(١) الشورى : ١٣.
(٢) البقرة : ٢٥٦ .
(٣) الكهف : ٢٩ .
(٤) الأنعام : ١٠٧.

تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

– لقد أخذ الإسلام بمبدأ الحرية الدينية قبل أن تعرفه دول الأرض جميعًا . وتقوم هذه الحرية الدينية في الإسلام على ثلاثة مبادئ :

١- الحرية في اختيار الدين .

٢- الحرية في المناقشات الدينية .

٣- الإيمان الصحيح ويكون مبنيًّا على إقناع واقتناع .

– وبالنسبة للمبدأ الأول : وهو الحرية في « اختيار الدين » الذي يعتنقه « الإنسان » فلا يرغم الإسلام أحدًا علي ترك دينيه واعتناق الدين الإسلامي .

ـ فقد سار المسلمون على هذا المبدأ في حروبهم ، فكانوا يتركون أهل البلاد المفتوحة ومايدينون به بشرط الولاء للحكومة الجديدة . وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في كتابه إلى أهل المقدس بعد فتحه : « هذا ما أعطى أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان ... أعطاهم أمانًا لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم .. لا يكرهون على دينهم ولا يضام أحد

(١) يونس : ٩٩ .

منهم » .

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من حسن معاملة الذميين ،إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] .

- وبالنسبة للمبدأ الثاني : وهو حرية المناقشات الدينية ، فقد أتيحت هذه المناقشات للمسلمين ولغير المسلمين ، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يشتركون في تلك المناقشات ، ويقول الله في القرآن الكريم :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[2] .

ويقول لأهل الديانات غير الإسلامية :

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3] .

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

(٢) العنكبوت : ٤٦ .

(٣) البقرة : ١١١.

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا ﴾ ﴿ بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

- وبالنسبة للمبدأ الثالث : وهو الإقناع والاقتناع قبل اعتناق الدين الإسلامي ، بحيث لا يرغم أحدًا علي ترك دينيه ، لأنه لا جدوى من الإيمان بغير اقتناع ، فالمسلم إذ كان ضعيف الإيمان ، مخلخل العقيدة ، لا يمكن الاعتماد عليه أو الاعتداد به ... فكيف بإرغام غير المسلم ؟!! إنه لا يجوز بمنطق الإسلام !!

- ولذلك يحث الإسلام على التفكير العقلي الجاد في مخلوقات الله والإيمان إيمانًا صحيحًا سليمًا . فقد رأى بعض الفقهاء أن إيمان المقلد غير صحيح .

- ويقول الإمام محمد عبده في ذلك : « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وإن المرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به » .

* * *

(١) آل عمران : ٦٤ .

حقوق الإنسان بين العدل والمساواة:

من عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة ، فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل ، وبلا شريعة حاكمة للناس جميعًا على قدم المساواة . وكل شعارات تنسى العدل ووسائل فرضه وحمايته هي شعارات فارغة المضمون تخدع المظلومين !!

وفي الإسلام تختلط كلمة المساواة بكلمة العدل ، فكأنها كلمة واحدة ، أو عملة ذات وجهين ، وهذا حق لا شكّ فيه ، فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين أو لقومية دون قومية ، أو لطبقة دون طبقة ، بل يجب أن يكون مطلقًا بلا حدود كما يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن :

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [١] .

فالمساواة في الحقوق والواجبات وأمام العدالة من الحقوق الأساسية للإنسان ولا يجادل في هذه الحقوق إلا عدو للإنسانية.

وقد كان الإسلام أسبق من كل النظم المعاصرة ، وأزكى في تقدير هذا الحق الفطري ، وهو أن الناس في الإسلام سواسية لا تفاضل بينهم... فكلهم لآدم وآدم من تراب ، ولا فرق بين الرجل والمرأة ، والغني والفقير في القيمة الإنسانية ، فلا تفاضل

---

(١) سورة النساء : ٥٨ .

بين الناس في هذه الناحية إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة ، وبما يقدمه كل فرد لربه ، ولإخوانه ووطنه.

لقد قضى الإسلام على الطوائف والعصبيات الجاهلية؟ فلا تفرقة بين الطابقات ، ولا بين العبيد والأحرار .. فكان الرسول ﷺ يقرب إليه كثيرًا من العبيد ، ويقدمهم على بعض الصحابة والأحرار ، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التي تضم بين صفوفها خيرة الصحابة وأجلاءهم ، فلا تفرقة في الإسلام من أجل حسب أو نسب . يقول تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

– ولم يفرق الإنسان بين الحر والعبد – أيام كان هناك عبيد – بل جعلهما متساويين في القيمة الإنسانية ، ويقول رسول الله ﷺ في خطبة الوداع : « **يا أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا أبيض على أحمر فضل وإلا بالتقوى ... ألا هل**

(١) النحل : ٩٧ ، وانظر الأستاذ توفيق علي وهبة : حقوق الإنسان بين الإسلام والنظم العالمية ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (مصر) .

بلغت ؟! اللهم فشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

ويروى أن أبا ذر الغفاري تناقش مرة في حضرة النبي مع عبد زنجي ، فاحتد أبو ذر على العبد وقال له : يا بن السوداء ، فغضب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال : « طف الصاع ، طف الصاع » أي زاد الأمر عن حده « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » فحزن أبو ذر ووضع خده علي الأرض ، وقال للعبد « قم فطأ علي خدي » فليس في الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه ، بل الكل سواسية ، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط .

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة...

أما أمام قانون الإسلام ـ فالمساواة قائمة كذلك : قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[1] .

وقال أيضا : ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ

---

(١) البقرة : ١٧٨ .

قِصَاصٌ ﴾[١].

وقال كذلك : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾[٢].

وينبئنا التاريخ الإسلامي أن تلك القواعد السمحة القويمة حول المساواة أمام القضاء كانت منفذة بحذافيرها أيام الرسول والخلفاء الراشدين ، فيروى أن أسامة بن زيد وهو من أحبّ الصحابة إلى رسول الله ، جاء إلى النبى ﷺ ليشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية ، وكان قد حكم عليها بحد السرقة حيث إنها سرقت قطيفة وحليًا ، فغضب رسول الله ﷺ وأنكر موقفه على الرغم من حبه له ، ولم تشفع له منزلته من رسول الله ، وقال له ﷺ «أتشفع في حدّ من حدود الله » وقام فخطب في الناس وقال :«**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»[٣] !!

ولقد شكا يهودي عليًا ﷺ إلى عمر بن الخطاب في خلافة عمر ، فلما مثل بين يديه خاطب عمر اليهودي باسمه ، على

---

(١) المائدة: ٤٥ .

(٢) النحل: ١٢٦ .

(٣) متفق عليه .

حين خاطب عليًا بكنيته فقال له : « يا أبا الحسن » حسب عادته في الخطاب معه ، فظهرت علامات الغضب على وجه عليّ ، فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًا ، وتمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة فقال عليّ : لا ، ولكني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه ، بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه ، بينما خاطبتني بكنيتي...!! ويروى أن ابن عمر بن العاص ضرب رجلا من دهماء المصريين ، حينما كان أبوه واليًا على مصر ، فأقسم الجني عليه ليشكوه إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» ، فقال له : اذهب فلن ينالني شيء من شكواك ، فأنا ابن الأكرمين ، وبينما كان الخليفة عمر بن الخطاب مع خاصته ومعهم عمرو بن العاص وابنه في موسم الحج ، قدم هذا الرجل عليهم ، وقال مخاطبًا عمر : يا أمير المؤمنين : إن هذا ـ وأشار إلى ابن عمرو ـ ضربني ظلمًا ولما توعدته بأن أشكوه إليك قال : « اذهب فأنا ابن الأكرمين » .. فنظر عمر ﷺ إلى « عمرو » وقال قولته المشهورة : « متى أستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار » ثم توجه إلى الشاكي وأعطاه درته ، وقال له : « اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك » !!!

* * *

وهكذا من الناحيتين الإنسانية والقضائية تتجلى « المساواة » التي وضعها الإسلام بين الناس ، فلا فضل إلا بالعمل الصالح في الدنيا والآخرة ... وأديانهم وأحسابهم موكولة إلى الله يوم القيامة ، أما في هذه الدنيا فالشريعة تقوم على العدل والمساواة بين الناس جميعًا .



الأفضلية بين الدين والجنس :

- كان اليهود بالدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى ـ الأمة المفضلة على العالمين ـ فما خان اليهود أمانة الوحي ، وحولوا الأمر إلى أفضلية عنصرية ، حول الله الوحي عنهم إلى المسلمين العرب ، وجعلهم ـ بالرسالة ـ خير أمة أخرجت للناس.

لكن الإسلام يرفض أن يكون ذلك مرتبطًا بالجنس ، بل يأمر بوضوح أن يكون ذلك مرتبطًا بالعقيدة الصحيحة والأخلاقيات والقيم ، فلا خيرية إلا بالقيم المفتوحة لكل الناس ، ولا يسمح القرآن بالظلم أو الاستعلاء اعتمادًا على هذه الخيرية المشروطة ، بل يفرض الأدب والحوار الأخلاقي مع المجتمع : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾[1].

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ﴾ ﴿مُّبِينٖ﴾[2].

- ويأمر المسلمين بأن يتركوا أمر الفصل النهائي في الأفضلية لله هناك في الآخرة ، وليس في هذه الدنيا ، وأن يلتزموا بالأدب مع مخالفيهم ، بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) سبأ : ٢٤ .

اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

- ومأساة الإنسانية المعاصرة تتجسد في موقفين :

• موقف اليهود أهل التوراة القوي المنظم والفاعل المؤثر والعالي ، والأخذ بكل أسباب القوة والهيمنة ، وهم الذين يفرضون المفهوم العنصري الاستعلائي اللا قيمي على العالم ، وتبدو الحضارة الأوروبية مخدرة ومغيبة أمام الضغط التوراتي الصهيوني !!

• موقف المسلمين المنهزم المتخاذل المتآكل داخليا ، والمتصارع بين أجزائه سياسيًّا وفكريًّا.. والمتخلف حضاريًّا....وهم أهل القرآن الذي يحمل مشروعًا إنسانيًّا غير عنصري!!

- وهذه المأساة الإنسانية المتجسدة في هذا الخلل تجعل أصحاب الموقف الأول يمتدون في فراغ دون مقاومة تذكر ، ودون وجود حقيقي للطرف الآخر ، بحيث يلفت إليه أنظار العالم الذي يشعر بالأزمة الإنسانية المعاصرة ويكتوي بنارها ، ويكاد يبصر آفاق المستقبل المظلم الذي ينتظره.

---

(١) الأنعام : ١٠٨ .

وليس ثمة من أمل في إنقاذ سفينة البشرية إلا بيقظة إسلامية تكفل وعي المسلمين بذاتهم وحقيقتهم ورسالتهم ، كأمة شهيدة على الناس ، قائمة بالدعوة إلى الحق والعدل والمساواة التي أمر الله بهما سبحانه وتعالى في آيات قرآنية كثيرة ، نكتفي منها بهذه الآية الكريمة التي تعد قانونًا شاملًا ، وخطابًا إنسانيًا عامًا. وميزانًا عادلًا ثابتًا ينظم كل الناس..

يقول الله في القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ﴿ وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1].

- فالناس جميعًا سواسية ، واختلافهم للتعاون والتعارف ، والتفاضل يكون بالعمل المقرون بالصلاح . وحسابهم ـ بعد ذلك ـ على الله ..

ـ وأما اختلاف الألوان والأجناس فلا قيمة له أمام عدل الله ، وشريعة الله ، وموازين الله التي تزن الأمور بميزان عادل دقيق : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [2] صدق الله العظيم .

*****

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) الزلزلة: ٧ ، ٨.



التكافل الاجتماعي

إطار التكافل الاجتماعي الإسلامي :

عندما نتحدث عن التكافل الاجتماعي في الإسلام يجب أن نعلم أننا نعالج عضوًا في جسد ، وجزءًا من كل؛ فالتشريع الإسلامي بينما يعالج قضايا الحياة المختلفة – اجتماعية كانت أو اقتصادية ـ فإنه يبقى دائما نسيجًا محكمًا لا ينفصل فيه جانب عن الجوانب الأخرى ـ بل إن التشريعات الإسلامية كلها لا تنفصل عن الإسلام (الكل) وبالتالي لا بد للتشريعات أن تقوم فوق عقيدة نقية ، وأن ترتبط بالجوانب الأخلاقية والعبادية .

ولعل هذا الارتباط بين الجزء والكل أهم الفروق بين الإسلام والفلسفات الاجتماعية والاقتصادية الوضعية التي تعالج قضايا الإنسان بطريقة تمزيقية ، وقد يدفع هذا إلى تضخيم الجانب الذي تعالجه على حساب الجوانب الأخرى ، كما أنه يدفعها بالتأكيد إلى التعامل مع الإنسان ـ في إطاره الشامل ـ بطريقة خاطئة .

والتكافل الاجتماعي نوع من التقْعيد النظري الرحيم للأسس الصالحة لقيام المجتمع البشري المتماسك الذي لا تقوم العلاقة فيه على أساس القواعد التشريعية فحسب ـ حتى مع شمولية هذه القواعد وسموها ـ بل قد توجب بعض الحالات الارتفاع فوق هذه القواعد ؛ وذلك مثلما فعل الأنصار مع

المهاجرين عندما شاركوهم في دورهم وأموالهم ، بل وقد عرض الأنصار على إخوانهم المهاجرين أن يقتسموا معهم هذه الأموال والعقارات مناصفة ... فهذا نوع من الإيثار (والتكافل) لم يجعله الشرع فرضًا ، وتركه للمستوى الأخلاقي للمسلمين في ظلّ معاني الرحمة والأخوة الإسلامية .

ومن العجيب أن الأنصار لم يعطوا ما أعطوا استشعارًا منهم بواجب شرعي تُمليه عليهم قواعد تشريعية ، وإنما فعلوه بنوع غريب من الحبّ ، ودرجة كبيرة من الإيثار خالية تمامًا من مشاعر الأثرة والشحّ ... قال تعالى في تصوير هذه الحالة الفريدة في التاريخ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١] .

ومن السياق السابق نعلم أن التعامل مع الجوانب الاجتماعية في الإسلام يقف فوق أرضية عقدية وفكرية ونفسية وأخلاقية معينة ، وأن المسلم يعالج هذه القضايا في إطار مفاهيمه الإيمانية الكلية ، فهو لا يقوم بها ؛ لأنها أوامر قانونية ، ولا قضايا مصلحية عامة ، يتبادل فيها الفرد والمجتمع الخدمات

(١) الحشر : ٩ .

بطريقة جدلية تبادلية .. وقد تنتهي هذه العلاقة بمجرد الشعور بانقضاء المصلحة ، أو بالتحايل على القانون ، فالأصل العقدي والعباديّ للقضايا الاجتماعية في الإسلام ، والمنهج الذي يجعلها جزءًا من كل لا تنفصل عنه... هذا الأصل وهذا المنهج يجعلان للتكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم قسمات خاصة ينفرد بها عن كل النظريات الاجتماعية التي ظهرت في القديم والحديث.

ويؤكد لنا أن هذه النظريات كانت تنظر إلى التكافل الاجتماعي على أنه مجرد تنظيم للعلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع ، وتمنع طغيان أحدهما على الآخر ، وتضع الأسس التي تضمن تَسَانُد المجتمع أفرادًا وطبقات ، وتتيح للجميع قدرا متكافئًا من الفرص والحقوق ، وتلزم الجميع بقدر عال من الواجبات...

• وهذه النظرة – كما نرى – تضع التكافل الاجتماعي – بعيدًا عن الشعور الروحي منْحصرًا في مستوى قانوني ومصلحي بَحْت ...!!

بينما تؤكد لنا الحقائق الموضوعية والتجارب الإنسانية أن الإنسان – كفرد أو كأسرة أو كمجتمع صغير أو كبير – لا يمكن أن يحافظ على كيانه الروحي والمادي بالقانون أو المصلحة وحدها...

• ومع هذا فإن التجارب الاجتماعية الحديثة قد سقطت في هذا التصور حين غلَبت النزعة المادية عليها ، فماتت فيها الروح الإنسانية ، وذبلت القيم الدينية ، وأصبحت الحياة حلبة سباق من أجل تحقيق مزيد من الترف والرفاهية والاستهلاك... ولولا قوانين الضرائب الصارمة التي يفرضها القانون والشرطة لتعرضت هذه المجتمعات لانهيار كامل.

• وفي المقابل نجد الدول الإسلامية (عبر التاريخ الإسلامي) قد تعرضت لنكسات كبيرة ، وقد عجزت مؤسسات الدول في كثير من الظروف عن توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من غذاء وكساء ودواء وتعليم ، فقامت الأمة المسلمة بدوافع الإيمان والعقيدة بسدّ الاحتياجات التي عجزت عنها مؤسسة الدولة..

• ومن هذا المنطلق نشير إلى الربط العضوي القائم بين مصطلحات (الأمة) و«المجتمع» و «التكافل الاجتماعي» . وأخيرًا يأتي مصطلح (الدولة) الذي يقوم بدور خطير ، لكنَّ الأمة مع ذلك لا يجوز لها أن تَيْأسَ ولا أن تترك التكافل الاجتماعي في الحالات التي تعجز فيها الدولة عن القيام بهذا التكافل ، أو الحالات الأخرى التي تتنكّر فيها الدولة لرسالتها ، وتخدم شرائح معينة ، وتهمل الشرائح الاجتماعية الوسطى

والضعيفة!!

- وانطلاقًا من هذا الإطار يضع الإسلام فيه مصطلح «التكافل الاجتماعي» في موقعه الصحيح نعالج المفهوم الإسلامي العلمي لهذا المصطلح.

* * *

مصطلح التكافل الاجتماعي في الإسلام :

يقصد بمصطلح التكافل الاجتماعي تضامن أبناء المجتمع وتساندهم سواء كانوا أفرادًا أو طوائف أو حكّامًا أو محكومين ، وذلك بدوافع إيمانية نبيلة تهدف إلى غايات كريمة تنتهي إلى تحقيق الرعاية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لجميع أبناء المجتمع وذلك بتوفير الاحتياجات الأساسية من مأكل ومشرب ودواء وكساء وتعليم .. بالإضافة إلى مقاومة كل من يحاولون خرق سفينة المجتمع كالمحترفين والمحتكرين والآكلين للأموال بالباطل بشتى الصور!!

وهذا التكافل الاجتماعي بهذا المفهوم الإسلامي تقرره الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التالية ، قال تعالى :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[١] .

(١) المائدة: ٢.

وقال تعالى :

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(١) .

وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا »(٣) ، ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبُّ لنفسه »(٤) ويقول ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا

---

(١) الحديد: ٧.
(٢) البقرة: ٢٦٧.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه البخاري .

على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا » [1] .

- ولعل الحديث التالي أصرح في الدلالة على التكافل الاجتماعي انطلاقًا من واقع عملي عاشه الرسول مع المسلمين ، فقد روي مسلم وأبو داود أن الرسول ﷺ قال : - وكان في حال سفر وشدة - « **من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به علي من لا زاد له ..** » قال أبو سعيد الخدري – رواي الحديث : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منّا في فضل .

● بَيْدَ أننا نؤكد – مرة أخرى – على حقيقة شمولية التكافل الاجتماعي في الإسلام للجوانب المادية والروحية لأنه في النهاية يعني شعور الجميع بمسؤولية بعضهم على بعض ، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول علي أخيه ، ويسأل عن نفسه ويسأل عن غيره [2] ولهذا كان للتكافل شعبتان : شعبة مادية : وسبيلها مد يد المعونة في حاجة المحتاج إغاثة الملهوف ، وتفريج كربة المكروب ، وتأمين الخائف ، وإشباع الجائع ، والإسهام العملي في إقامة المصالح العامة وقد أطلق الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) الشيخ محمود شلتوت – الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٤٤- ط٣ دار القلم -١٩٦٦ مصر .

على هذا النوع من التعاون المادي عناوين مختلفة تشمل أنواعًا مختلفة تشمل أنواعًا مختلفة من العلاج والتكافل مثل (الإحسان - الزكاة - الصدقة - الحق المعلوم - الانفاق في سبيل الله - كفالة اليتيم - صلة الأرحام .. إلخ) لكن هذه العناوين الدالة على أنواع من التكافل تتكامل كلها لتقدم نسيجًا من التكافل المادي في الحياة الاجتماعية .

● أما الشعبة الثانية فهي الشعبة الأدبية : ونعني بها تكافل المسلمين جميعًا وتعاونهم المعنوي بالتعليم والنصح والارشاد والتوجيه ..أوبإيجاز : التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولًا وفعلا .. والإسلام يجعل هذا التكافل الأدبي فريضة لازمة على كل مسلم ، بل جاء على لسان الرسول ﷺ أنه الدين كله بالنسبه لجميع الطبقات [1] « **الدين النصيحة** » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « **لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ..** » .

وهكذا يتضح لنا - بجلاء وتركيز شديدين - أن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يعني مجرد المساعدات المادية - أيا كانت صورتها - كما تعني كلمات مثل الضمان الاجتماعي أو التأمين الاجتماعي .. بل يمتدّ المضمون الإسلامي للتكافل

---

(١) الشيخ محمود شلتوت - الإسلام عقيدة وشريعة ص٤٤٤- ٣٤٥- طبع مصر .

ليصبح نظامًا لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته وسلوكه الاجتماعي – ونظامًا لتكوين الأسرة وأساليب تكافلها ، ونظاما للعلاقات الاجتماعية – بما في ذلك العلاقات التي تربط الفرد بالدولة – وأن يكون في النهاية نظامًا للمعاملات المالية ، والعلاقات الاقتصادية التي تسود المجتمع الإسلامي [(١)] .

* * *

أهمية التكافل المعنوي :

قد يتصوَّر بعضهم أن التكافل المعنوي والأدبي والأخلاقي والروحي أقل رتبة من التكافل المالي والاقتصادي .. بل قد يعتبرونه نوعًا من الهروب من الإطار الحقيقي للتكافل الاجتماعي المادي ..

ونحن لا نوافقهم على رأيهم هذا .. بل إننا نرى أن التكافل المادي لا تتحقق أهدافه إلا بالوقوف فوق الأرضية المعنوية والأدبية .. ونرى أيضا أن التكافل المعنوي هو الذي يضمن فعالية التكافل المادي .. فما معني أن يتكافل المسلمون ماديًا– في بلاد الاغتراب [(٢)] مثلا – التي قد تُقدّم فيها الدولة ألوانًا من

---

(١) من كتاب الدورة الثالثة حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ص ٧٠٧ » نقلا عن عبد الله ناصح علوان : التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ٢١ » نشر دار السلام مصر ط ٤ ؛ ١٤٠٣.

(٢) ممثل بلاد أوربا وأمريكا وأستراليا .

الضمان الاجتماعي المادي بينما يترك بعضهم بعضًا ينحدر في عقيدته وعبادته وأخلاقه . بحيث يكاد يذوب في القيم الانحلالية والمادية واللا أخلاقية التي تطرحها - في الشارع والإعلام - المنظومة القيمية اللا دينية ؟!!

- وهكذا فإنه على الرغم من أن الإسلام قد قدم إطارًا قانونيًّا متكاملا لتحقيق العدالة الاجتماعية المادية - إلا أن الأساس المعنوي يقوم على مخاطبة الإنسان من داخله ، وليس مجرد قيادته من ظاهرة وتحريك ضميره بدل سوقه بالقوة القاهرة ، واستجاشة مشاعر الفطرة النبيلة بدل تحويل الحياة إلى صراع كئيب ، والحق أن الإسلام في تشريعه الاجتماعي قد اعتمد هذا الأساس المعنوي على نحو لم تصل إليه أرقي النظم التي ظهرت في التاريخ ، وقد أطلق على هذا الأساس اسم « التكافل الاجتماعي » شاملًا المعنويات والماديات .

- ولئن كانت بعض البلدان غير الإسلامية قد بدأت تلجأ إلى أسلوب التكافل الاجتماعي عن طريق ما يسمى بالجمعيات الخيرية ومؤسسات البر والمستوصفات والمستشفيات المجانية والضمان الاجتماعي وحماية الضعفاء وما إلى ذلك .. إذا كان الأمر كذلك فليس ما تفعله هذه الدول إلا تقليدًا متأخرًا منها لما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا ، بعد أن طحنتها

القوانين الجافة وأساليب الصراع الاجتماعي !!

وفي هذا العصر حيث أصبح العالم قرية إعلامية أو إليكترونية فيتعرض كل الناس لغزوات - وهم في بيوتهم - تريد أن تفرض عليهم قيم اللاَّ دينية والمادية والانحلالية والذاتية والأنانية التي لا تأبه بالمصلحة الكبرى للدين أو للأمة أو للجماعة .. في هذا العصر - ولا سيما في بلاد الأقليات - يحتاج المسلمون إلى توظيف المساجد والمراكز الإسلامية والجمعيات الخيرية - توظيفًا معنويًا ودينيًا يتكافلون من خلاله في تحقيق قوله تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ (١) .

وقوله تعالي : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ (٢).

ربما بدرجة أكبر من تكافلهم في الجوانب المادية التي يعدّ التكافل فيه أمرًا منظمًا ومتفقًا عليه ، وتساعد عليه الدول مساعدة إيجابية في بلاد الاغتراب ،بينما تبقي الشخصية الإسلامية معرضة لأكبر الأخطار ... بل إنّ هذه الدولة تضع - أو بعضها على الأقل - خططًا محكمة لتذويب المسلمين فيها ، وقد تصف كل من يتمسك بشخصيته بالتطرف والمبالغة ،

---

(١) العصر: ٣ .

(٢) المائدة: ٢.

وتعتبر المسلم المتحرر – كما ذكر ممثل للجالية المسلمة في فرنسا – هو المسلم الذي يشرب الخمور ويتجاوز في العلاقات الاجتماعية (!!) .

وفي ضوء هذا فإن تكافل المسلمين المعنوي والفكري والسلوكي في بلاد الغربة أشد حاجة من التكافل المادي .. بل هو الطريق لبقاء الأواصر والعلاقات – بصفة عامة – بين المسلمين ؛ فلن يكون ثمة التقاء تكافلي أو غير تكافلي حين يصبح بعض المسلمين شيوعيين وبعضهم علمانيين متحللين وبعضهم يعيشون لأنفسهم وسهواتهم وجمع ثرواتهم ولا يفكرون في الآخرين ولا يهتمون بأمر المسلمين .. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ..!!

- ومن هنا تتضح ضرورة التفكير في تنمية مساحة التكافل المعنوي .. واستحداث صورًا اجتماعية جديدة لها .

* * *

صور التكافل الاجتماعي في الإسلام :

تتعدد صور التكافل الاجتماعي في الإسلام ، فتمتد إلى كل العلاقات الاجتماعية ، لكننا نستطيع أن نوجز أهمها في المظاهر التالية :

١- التكافل الخلقي : ويقصد به إيجاد تعاون اجتماعي عام لإيجاد روح اجتماعية تنكر المنكر وتشيع المعروف ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1] .

فكل فرد في المجتمع الإسلامي ، وكل مسؤول عن موقع ما ، مهما اختلفت المستويات والطاقات ، مسؤول عن إشاعة المعروف وإزالة المنكر : « من رأى منكم منكرًا فلغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[2] .

كما أن المجتمع أفرادًا وحكومات - مسؤول عن حماية دماء الناس وأعراضهم وأموالهم « كل المسلم على المسلم حرام . دمه وماله وعرضه »[3] وذلك ليشيع الأمن والخير والحب في المجتمع .

٢- التكافل الذاتي ... أي رعاية الإنسان لنفسه ، عن طريق تزكيتها بالإيمان والعمل الصالح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[4] .

---

(١) آل عمران: ١٠٤.
(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي .
(٣) رواه الشيخان .
(٤) الشمس: ٩ ، ١٠.

والارتفاع بها والسير في طريق النجاة : ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (١) .

٣- التكافل الأسري .. أي رعاية الإنسان لأهله .. لوالديه وإخوته وزوجته وأولاده ، وقد روى النسائي عن طارق المحاربي قال : قدمت المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول : « **يد المعطي العليا وابدأ بمن تعول : أمك وأباك فأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك** » ، ومن ذلك أيضا قول الله تعالى : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (٢) .

٤- **وهذا التكافل الأسري يمتد ليشمل كل ذوي الأرحام ،** وقد أعطى الإسلام ذوي القربى حقوقًا من حقهم أن يطالبوا بها قانونيًا . قال تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ (٣) .

« وقيمة هذا التكافل في محيط الأسرة أنه قوامها الذي يمسكها ، والأسرة هي اللبنة الأولي وفي بناء المجتمع ، وهي تقوم على الميول الثابتة في الفطرة الإنسانية ، وعلى عواطف

---

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) البقرة: ٨٣ .

(٣) الإسراء: ٢٦ .

الرحمة والمودة ، ومقتضيات الضرورة والمصلحة » [١] .

٥- حق الجار والقرآن الكريم يقول في حق الجار : ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [٢] .

وقال أبو ذر الغفار ﷺ عن رسول الله ﷺ : أوصاني خليلي ﷺ : « **إذا طبخت فأكثر المرق ، ثم انظر بعض أهل البيت من جيرانك فاغرف لهم منها** » [٣] .

وليس الجار هو الملاصق كما يظن بعض الناس ، فقد روي في الآثار أن أربعين دارًا جار ، وفسرها بعضهم بأربعين من كل جهة من الجهات الأربع ، فأهل كل حي إذن جيران بعضهم لبعض قالت عائشة : قلت يا رسول الله ! أن لي جارين ، إحداهما مقبل علي ببابه والآخر ناء ببابه عني ، وربما الذي كان عندي لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقًا؟ فقال « المقبل عليك

---

(١) سيد قطب : العدالة والمجتمع في الإسلام ص ٦٥ دار الشروق – مصر ٤٩٥هـ .

(٢) النساء: ٣٦ .

(٣) رواه مسلم .

ببابه »[1] فالإسلام يريد أن يجعل من الحي والشارع وحدة متكاملة متعاونة بحيث يمحون ضعفاءهم ، ويطعمون جائعهم ، ويكسون عاريهم ، وإلا برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، ولم يستحقوا الانتماء إلى مجتمع المؤمنين[2] .

٦- وللفقراء والمعوزين حق في مال الأغنياء ، إلى أن يكتفوا إذا لم تكفهم الزكاة المفروضة ، ويقول الإمام أبو محمد علي بن حزم المتوفى سنة (٤٥٦هـ) في موسوعته الفقهية « المحلى » عن ذلك « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد إن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكاة بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بدّ منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة ...» .

وقال ابن حزم : « ولا يحل لمسلم مضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعامًا فيه فضل على صاحبه لمسلم أو

(١) انظر : « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » ، للدكتور يوسف القرضاوي – ١٣ .
(٢) المصدر السابق .

لذمي ؛ لأنه فرض على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل المانع فإلى لعنة الله ، لأنه منع حقًّا وهو طائفة باغية »[١] .

٧- **كفالة أهل الذمة** ، ففي المجتمع الإسلامي ، يمتد التكافل ليشمل المنضويين تحت مظلة المجتمع الإسلامي ، وقد منح الإسلام – أهل الذمة – من أهل البلدان التي فتحها المسلمون حقوقًا تمنحهم الأمان والاطمئنان على معتقداتهم ، إذا شاء والبقاء عليها ، ما لم يقفوا في وجه الإسلام بطريق أو بآخر . وفي سلوك الرسول – عليه الصلاة السلام – في المدينة مع اليهود .. وسلوك المسلمين مع اليهود .. وسلوك المسلمين بعد ذلك على امتداد التاريخ ما يؤكد سمو المعاملة التي عومل بها هؤلاء . ونحن نجد في كتب « النظم الإسلامية » مثل كتاب «الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام وكتاب «الخراج» لأبي يوسف ، وكتاب «الخراج» لقدامة بن جعفر ، وكتاب «الأحكام السلطانية» لأبي الحسن الماوردي[٢] – نجد في هذه الكتب وغيرها تفاصيل المعاملة النادرة السامية التي عومل بها هؤلاء

(١) المحلي ج ٦ كتاب الزكاة مسزلة ٧٢٥

(٢) د. حسين مؤنس . عالم الإسلام ص ٢٩٥ طبع مصر .

الذميون .

ولعل من أكبر صور السمّو في المعاملة تلك الكفالة الاجتماعية التي ضمنها المجتمع الإسلامي لهؤلاء في حالات عجزهم وضعفهم ، وقصة عمر بن الخطاب مع اليهودي وفرضه له مالا – راتبًا – من بيت مال المسلمين أكبر دليل على ذلك .

٨ – حق الأطفال والأبناء فكما للوالدين حقوق فإن للأبناء حقوقًا أيضًا .

وتؤخذ نفقة الأطفال والأبناء ووجوبها الشرعي على الأب من عموم قول الرسول ﷺ لهند بنت عتبة : « **خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف** » .

كما يؤخذ ذلك أيضا من قول الله تعالى : ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [١] .

وتفيدنا الآية الكريمة أنه إذا مات الوالد فإن نفقة الأطفال الذين يتركهم تعود إلى ورثة هذا الفقيد ، وحتى لو لم يترك

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

الوالد الميت شيئًا ، فإنهم يُلزمون بالإنفاق على أطفاله القاصرين حسب ميراثهم الذي كان من الممكن أن يأخذوه لو ترك شيئاً . أفيأخذون أمواله وعقاراته في حال الغنى . ولا يكلفونه في تبعاته في حال الفقر؟ إن هذا لا يجوز في لغة العقل ولا في لغة العدل. وقد وقف الإمام ابن حزم – رحمه الله – في وجه من خالفوا هذا الرأي ، وردّ أقوالهم واستشهد لقوله الذي ذهب إليه بما فعله ابن مسعود حين جعل نفقة الصبي من ماله وقال لوارثه : أما أنه لو لم يكن له مال لآخذناك بنفقته .

كما استشهد بقول الحسن البصري : نفقة الصبي إذا لم يكن له مال على وارثه . وفسر الحسن البصري قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ بالنفقة ، ويقول ابن جريج : قلت لعطاء : أيجبر وارث الصبي – وإن كره – بأجر مرضعته إذا لم يكن للصبي مال؟ قال : أفندعه يموت ؟ وهكذا ينشأ الطفل في الإسلام محفوظًا برعاية كاملة من أبيه أو وارثه أو رحمه ، وتكفل أمه وحاضنته حماية له وكذلك مرضعته – وعلى الدولة المسلمة – أو الأمة في حالة عدم وجود دولة – بعد ذلك – مساعدة الأسرة على حماية الطفولة وتوفير متطلباتها ، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنح كل رضيع معاشًا دوريًا ثابتًا في حدود

الكفالة الصحيحة والعدل الصحيح .

وعلى المجتمع المسلم – دولة أو أكثرية أو أقلية – أن يقوم بهذا الدور بالنسبة لجموع أطفال المسلمين وأبنائهم.. هذا في الناحية المادية والعضوية .. أما في الناحية المعنوية ، والأدبية المتصلة بالعقيدة والقيم . فمن واجب المسلمين التكافل والتعاون على تنشئة الأبناء تنشئة إسلامية عن طريق إنشاء المحاضن ذات المنهج الإسلامي والأهداف الإسلامية ، ويتأكد هذا في عالم الأقليات الإسلامية لوجود ضغوط استلابية تحاول صناعة الأبناء وفق منظومة القيم اللا إسلامية .

ومن المعروف أن المدارس الأجنبية الخاضعة للدول الأوربية وثقافتها ، والهيئات التبشيرية تقدم صياغة علمانية للحياة لا تخلوا من مسحة تنصيرية ، وقد ساعد على نجاح هذه المدارس ما تمتاز به من وسائل النظام والنظافة وأساليب التربية الحديثة ووسائل الإيضاح وتعليم اللغات ، ونتيجة هذا فقد أصبحت هذه المدارس في كثير من البلدان العربية والإسلامية المقصد الذي يقصده كل القادرين علي دفع نفقات التعليم فيه ، أو الذين يتاح لهم إدخال أبنائهم فيها بصورة أو بأخرى .

وقد أتيح لي شخصيًا أن أعمل في واحدة من أشهر هذه

المدارس خلال الستينات – ولم تتحمل هذه المدرسة اتجاهي الإسلامي لأكثر من عام واحد ، وذلك لأن برنامجها التنصري لم يكن يخفى عليّ فاستعملت الحكمة في الحفاظ علي الشخصية والعقيدة الإسلامية لكن هذه الحكمة لم تكن لتخفى عليهم ، فهم أكثر الناس حكمة ودهاء في الوصول إلى أغراضهم التبشيرية !!

وفي ضوء هذه المفسدة المظنونة – على الأقل – إن لم تكن محققة في هؤلاء الأبناء الصغار الذين لا حضانة لديهم فإن من السهل التعرف على الحكم الشرعي من خلال قاعدتين أصوليتين :

– قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

– قاعدة سد الذرائع ، وأن ما يؤدي إلى الحرام حرام . فكيف وهذا الحرام يمسّ عقيدة المسلم نفسه .

٩– رعاية اللقيط .. واللقيط إنسان ولد لا يعرف والده ولا أمه ، ومن حقه أن يلتقطه الناس من الشوارع ويأثمون إن لم يلتقطوه وتركوه يهلك ، تقديرًا من الإسلام لحق الحياة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [(١)]

---

(١) المائدة: ٣٢ .

ومن واجب الأمة المسلمة – دولة كانت أو أقلية أو جماعة مهما صغرت – أن ترعى هذا اللقيط وتعمل على تنشئته تنشئة إسلامية سوية وتعلمهً مهنة يرتزق منها ، وليس كل لقيط من زنا ، فقد يكون أبواه قد ماتا في ظروف غامضة ، أو افترقا ، أو افتقرا فقرًا مدقعًا ، ويتولى من يشاء رعاية اللقيط بشرط أن يكون مسلمًا ، عاقلًا ، بالغًا ، حرًّا ، قويًّا ، خبيرًا بشؤون التربية ، وعدلاً. وفي كتب الفقه باب مستقل عن(اللقيط) يتناول كافة حقوقه الإنسانية وواجبات المجتمع نحوه حتى ولو كبر وارتكب خطأ يوجب غرمًا ماليًّا لا يستطيع دفعه ووجب على الإمام أن يتولاه عنه ، وإذا ادعى نسب اللقيط رجل أو امرأة حكم لهما به ، وإذا حدث تنازع عليه من أكثر من رجل وامرأة استعملت طرق الإثبات المختلفة ، كأساس لمن تنطبق عليه الشروط.

١٠- كفالة اليتيم : واليتيم من مات أبوه وتركه صغيرًا ضعيفًا يحتاج إلى من يكفله ، وقد حث الإسلام على إكرام اليتيم فقال تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [(١)] .

وقال : ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [(٢)] .

---

(١) الضحى: ٩.

(٢) الفجر: ١٧.

وقال : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (١).

وقال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (٢).

وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٣).

وفي الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » وأشار بإصبعيه - يعني السبابة والوسطى .

وهذا يوجب على المسلمين استحداث آليات وصور تطبيقية في محيطهم الإسلامي ، ولا سيما في بلاد الاغتراب لرعاية اليتامي حتى لا يلتقطه أعداء الإسلام ، فعليهم افتتاح الدور لرعاية الأيتام تحت إشراف المراكز والمؤسسات الإسلامية والجمعيات الخيرية والقائمين على شؤون المساجد.

١١- كفالة أصحاب العاهات والشيوخ والعجزة والمنكوبين :

---

(١) الماعون ١، ٢.
(٢) الأنعام: ١٥٢.
(٣) النساء: ١٠.

وكفالة هؤلاء تدخل في نطاق قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ (١).

وقوله تعالي أيضا: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

وفي نطاق قوله - عليه الصلاة والسلام - « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة** » (٣).

* وأصحاب العاهات هم الذين فقدوا عضوًا من أعضائهم أو خرجوا إلى الحياة ببنية هزيلة وذلك مثل العميان، والصرعي، والمعتوهين، وأصحاب العيوب الكلامية، والأمراض المزمنة، وأمراض الشيخوخة (٤).

وقد جاء في كتاب خالد بن الوليد إلى أهل الحيرة ما نصه:

---

(١) المائدة: ٢.
(٢) آل عمران: ١٣٤.
(٣) متفق عليه.
(٤) انظر: عبد الله - التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ٦٣ وما بعدها.

« وجعلت لهم أيمًا شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفه من الآفات أو كان غنيًا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزْيته ، وعيل من بيت المال وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام »[1].

ورعاية هذه الشرائح تقتضي إقامة الدور الصالحة لإقامتهم وتغذيتهم والإشراف عليهم ، فإذا كانوا يقيمون مع أهلهم فإن دور رعايتهم تقوم بتعليمهم العلوم النافعة والمهن المناسبة . أما الشيوخ والمنكوبون فينبغي أن يلقوا الرعاية المعنوية والمادية المناسبة ؛ لأنه لا يصلح في الإسلام أن يعيش المسلم لنفسه وأولاده وأرحامه تاركًا مساحة الحياة الاجتماعية لا يتعاطف معها ولا يهتم بأمرها ؛ لأن مثل هذا المسلك يتعارض مع قوله عليه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[2].

١٢- رعاية الشواذ والمنحرفين والمطلقات والأرامل : هذه الصور من الشذوذ على قاعدة الحياة السوية – وربما غيرها –

---

(١) من كتاب الخراج لأبي يوسف ص١٤٤.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد .

سواء كانت ناشئة عن عيوب اجتماعية وأخلاقية أم ناشئة عن خلل في الحياة السرية أو العلاقة الزوجية ، وسواء تعلقت بالرجل أو بالمرأة أو كانت بتأثير العوامل الداخلية كسوء التربية المنزلية وإهمال الوالدين للأبناء أو بتأثير العوامل الخارجية كرفقاء السوء أو مشاهدة الأفلام التي تحث على الجنس أو الجريمة ...

كل هذه الحالات يجب على المجتمع المسلم – مهما كان صغيرًا أو فقيرًا – أن يتكاتف في سبيل علاجها ورعاية أصحابها دينيًا وتربويًّا ، وأخلاقيًّا ، وماديًّا ونفسيًّا ... وفي هذه الحالات لا بد أن تتعانق صور العلاج النفسي والروحي مع الرعاية المادية والاجتماعية ولا بد من تهيئة المناخ الإسلامي المناسب وتيسير السبل للأعمال والنشاطات النافعة الحلال التي تمثل البديل للمناخ غير الصالح الذي كان من أسباب معاناة هؤلاء ،وربما كان من عوامل التكافل الاجتماعي تيسير السبل للزواج أيضًا وللالتحاق بدروس المساجد وبدور العلم المناسبة لإمكانات هؤلاء وثقافتهم وقدراتهم الفكرية .

* * *

نظام المواريث والتكافل الاجتماعي :

بعض الذين عالجوا نظام المواريث في الإسلام كانوا خاضعين لشعارات فوضوية من هذه الشعارات التي تخدع العقول وتهدم العواطف ، لكنها – عند التحليل العلمي – بعيدة عن الحق والصواب والرؤية الاجتماعية الشاملة التي تنظر إلى الأسرة كبناء متكامل وإلى المجتمع في النهاية كوحدة متماسكة متعاونة .

وإذا نظرنا إلي كل أسرة طبيعية فإننا نجدها تتكون من رجل وامرأة ، فإذا كان ميراث الرجل ضعف المرأة فإن كل بيت في النهاية سيتكون من ثلاثة أنصبة (٢ الذكر + ١ للأنثى) والسرّ التشريعي الحكيم وراء هذا هو الحفاظ علي التكافل الاجتماعي ؛ إذ يبقى الأخ (الزوج لامرأة أجنبية) مرتبطًا بإخونه وأرحامه شاعرًا بمسؤوليته نحوهم ، وتبقى الأخت (الزوجة لرجل أجنبي) شاعرة بانتماء لإخوتها وأرحامها من زاوية مسؤوليتهم نحوها تجاه ما أخذوه من فارق في الميراث يمثل ضمانًا اجتماعيًا لها عندهم في حالات موت زوجها أو ضياع مالها !!..

وهذا نموذج نقدمه لبيان روح التكافل الاجتماعي الذي يتخلل نظام المواريث في الإسلام ، فلم يجعل الإسلام المواريث قواعد رياضية جافة تقطع كل الوشائج والأرحام .. ونحن نلمس

هذه الروح من خلال بصرنا الحكيم في آيات المواريث نفسها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1].

• وعند الفحص الدقيق لآيات المواريث نجدها مصبوغة بصبغة الله اللطيف الخبير الذي يصنع القوانين دائما في إطار من الحب والتكافل والرحمة ، وقد يجبر النواحي القانونية بأوامر أخلاقية وشرعية لا تقل قوة عن النواحي المادية ، فللوالدين في الإسلام بعامة وللأمم بخاصة حقوق تسمو على كل الحقوق المادية ، وكانها تجعل الولد وما يملك لوالديه ، ولم يأمر الإسلام بالذلّ إلا مع الوالدين :﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[2].

ومن الزاوية المادية البحتة التي يركز عليها بعضهم – ترد حالة الأم – بصور ميراثها المختلف كوارثة – وحالة الإخوة لأم بصور ميراثها المختلفة ، مساوية ماديًا للرجل ، أو متفوقة عليه معنويًا ومساوية له ماديًا في بعض الحالات ، وفي هذا الدلالة العظمى على عدل الشرع الحكيم ، وعلى تقديره لعلاقة

---

(١) النساء من ٩ : ١٤.

(٢) الإسراء: ٢٤.

الأمومة ، وعلى أن هذا الشرع الحكيم لا يجامل الرجل على حساب المرأة ، وكذلك لا يجامل المرأة على حساب الرجل ، ولا يحابي طبقة على طبقة على حساب أخرى .. بل يعطي كل ذي حق حقه في ضوء المصالح العامة ، والظروف الخاصة ، والواجبات الملقاة ، والحاجات الملحّة !!

* * *

التكافل الاجتماعي والأخوة الإسلامية :

- إذا كان التأمين الاجتماعي أمرًا تتولاه الدولة والمؤسسات الخاصة ، ويتطلب مساهمة المستفيد باشتركات يؤديها حتى تمنح له مزايا التأمين الاجتماعي متي توافرت فيه شروط استحقاقها .. ، وإذا كان الضمان الاجتماعي يقصد به التزام الدولة نحو مواطنيها ، وهو لا يتطلب تحصيل اشتراكات مقدمًا ، وتلتزم الدولة بتقديم المساعدة للمحتاجين في الحالات الموجبة لتقديمها كمرض أو عجز أو شيخوخة ، متى لم يكن لهم دخل أو مورد رزق يوفر لهم حد الكفاية [(١)] .

إذا كان هذا هو مفهوم التأمين الاجتماعي والضمان

---

(١) د. محمد شوقي العنبري : الإسلام والضمان الاجتماعي ص٣٠، ٣١ط٣ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠.

الاجتماعي فإن التكافل الاجتماعي قد حققه الاسلام بين أفراد الأمة جميعًا من شبكة من الالتزامات والقيم الشرعية والأخلاقية .

- وتأتي (الأخوّة الإسلامية) أساسًا تقوم عليه كل صور التكافل والتراحم بين المسلمين ، وهي تجسيد لقوله تعالى في وصف المؤمنين :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢)

فعندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة كانت المؤاخاة بين المسلمين من أولى الركائز التي اعتمد عليها في بنائه لمجتمع المسلمين ، وقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار « **تآخوا في الله أخوين أخوين** » .

فكان هذا التآخي – بما انبثق عنه من ترابط وتكافل اجتماعي وإيثار نادر في تاريخ البشرية كله .. كان هذا التآخي « تجربة رائدة » في تاريخ العدل الاجتماعي ضرب فيه الرسول

---

(١) الحجرات:١٠ .

(٢) الفتح: ٢٩ .

عليه الصلاة والسلام مثلًا على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظروف المناسب على أشد صور العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلًا [١] ، وقد بلغ من تأكيد الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤاخاة أن كان ميراث الأنصاري يؤول بعد وفاته لأخيه المهاجر بدلًا من ذوى رحمه من الأخوة أو الأبناء والنساء واستمر الحال على ذلك حتى موقعة بدر التي حظى فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال .

فأنزل الله تعالى : ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [٢] .

فعاد التوارث سيرته الأولى [٣] .

- ولا نظن مجتمعًا من هذه المجتمعات التي تتشدق بالعدالة الاجتماعية تحت شعار الاشتراكية أو غيرها - تحلم بالوصول إلى شيء من هذه الصور التي صورها القرآن أصدق تصوير بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ

(١) د. عماد الدين خليل / دراسة في السيرة ص ١٥٢.
(٢) الأنفال: ٧٥.
(٣) د. عماد الدين خليل / دراسة في السيرة ص ١٥٢.

بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١].

إن الأخوة بين المسلمين من أعظم المبادئ التي ارتكز عليها التكافل الاجتماعي في الإسلام ، بيد أن هذه الأخوة التي تجسدت عمليًا في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول صورة تطبيقية لها .. هذه الأخوة للأسف الشديد لم تحظ من المؤرخين بالاهتمام الكافي ، مع أنها من أبرز الظواهر التي تُخْرِسُ الدعاة المزيفين للعدالة الاشتراكية في العصر الحديث وتكشف بجلاء عن مدى عظمة النظرة الإسلامية لعلاج المسالة الاجتماعية.

- وجدير بالتنويه هنا أن هذه الأخوة ممتدة بين المسلمين إلى يوم القيامة . ولئن كانت قد توقفت كأساس للتواريث ، فإنها لم تتوقف كمبدأ إنساني اجتماعي أساسي في حياة الجماعة الإسلامية ، لأن محمدًا عليه الصلاة والسلام لم يقررها لمجرد إيجاد وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين ، وإنما قررها ليؤكد للجماعة الإسلامية مبدأ الأخوة في العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة .

ولو أن كل جماعة إسلامية حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها اثنين اثنين بروابط أخوة قلبية وإنسانية مثالية -

---

(١) الحشر: ٩.

لكان لذلك أثره البعيد في تطور العلاقات الإنسانية في داخل الجماعات الإسلامية ، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة تعين الجماعة الإسلامية على الشباب والسير إلى الأمام [١] فضلًا عن حفظها لكيان المجتمع كأقوى ما يكون ترابطًا وتعاونًا وحبًا .. ولا سيما في بلاد الغربة ، حيث يكون المسلمون أقلية .

إن الأخوة الإسلاميّة – بتركيز شديد هي التطبيق العقدي والشرعي والأخلاقي للتكافل الاجتماعي الإسلامي العام ، وهي – فرض كفاية – علي الجميع – وفرض عين – على الأقربين مكانًا ورحمًا وصلة بالمحتاجين ... يقول صاحب كشاف القناع : « دفع الضرر عن المسلمين من فروض الكفاية ، وهي ما قصد حصولها من غير شخص معين ، فإن لم يوجد إلا واحد ، تعين كستر العاري ، وإشباع الجائع ، وفك الأسرى على القادرين من المسلمين ، إن عجز بيت المال عن ذلك ، أو تعذر الأخذ منه » [٢] .

وعلى أساس هذه الأخوة الإسلامية التي تتأرجح بين فرض

---

(١) د . حسن مؤنس – عالم الإسلام ص١٣٩ دار المعارف – مصر .

(٢) كشاف القناع ج ١ – ص٦٥١ – وانظر د. محمد الصادق عفيفي : المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان ص ٩١ سلسلة دعوة الحق : مكة المكرمة ١٤٠٧هـ .

الكفاية والعين انطلق المجتمع الإسلامي وتجاوز كثيرًا من العقبات المعنوية والمادية ! وبدون عودة هذه الأخوة – على النحو الإيجابي الفاعل الذي يتجاوز الحواجز العرقية والوطنية والاجتماعية – لن تقوم للمسلمين قائمة ، ولا سيما حين يكونون أقليات. سواء كانوا أقلية كبيرة مثل الأقلية الإسلامية في الهند ، أو أقليات صغيرة كتلك الأقليات المنتشرة في أوروبا وأمريكا وإفريقيا وغيرها... ففي كل الحالات لن تستطيع الأقليات الإسلامية أن تواجه الضغوط الاجتماعية والثقافية المضادة للهوية الإسلامية إلا بالمناخ الذي تحققه الأخوة الإسلامية التي وفرت شروط الانطلاق والسيادة للمجتمع الإسلامي الأول وسط ظروف أعتى من الظروف التي تحيط بالأقليات الإسلامية اليوم... وما زالت قادرة على قيادة المسلمين اليوم... أكثريات وأقليات التكافل الاجتماعي ... وروح الإسلام . على طبيعة هذا الدين التي لا تقف عند التشريعات والتوجيهات روح واضحة قوية لا يملك الإنسان نفسه من التأثر بها والاستغراق في جوها... هذه الروح هى التي ترسم الأفق الأعلى الذي يتطلب الإسلام من معتنقيه أن يتطلعوا إليه ، وأن يحاولوا بلوغه ، ليس بتنفيذ الفرائض والتكاليف فحسب ، بل بالتطوع الذاتي لما هو فوق الفرائض

والتكاليف... وهذا الأفق عسير المرتقى ، والأعسر منه الثبات عليه! لأن نوازع الحياة البشرية ، وضغط الضرورات الإنسانية ، لا يطوعان للأكثرين من الناس أن يرتقوا لهذا الأفق العالي ، ولا أن يصبروا عليه طويلًا ، إن ارتقوا إليه في فورة من فورات الشوق والتطلع ، فلهذا الأفق تكاليفه العسيرة ، وهى تكاليف في النفس والمال وفي الشعور والسلوك [1] .

- ولقد كان لتلك الروح التي أشرنا إليها أثر في الواقع الإسلامي التاريخي ، فاستحال الإسلام - وهو عقيدة وفكر - إلى شخصيات ووقائع ولم يعد نظريات مجردة ، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مثلًا وأخيلة ، إنما عاد نماذج إنسانية تعيش ، ووقائع عملية تتحقق ، وسلوكًا وتصرفات تشاهد بالعين ، وتسمع بالأذن ، وتترك أثرها في واقع الحياة ، وفي أطوار التاريخ ، فكأنما كان روحًا يتلبس بهذه الشخوص فيحولها ، ويصوغها صياغة جديدة وينشئها نشأة أخرى - وهذه التي يسميها هذا الكتاب - روح الإسلام ، هى في رأينا مزيج من الحب والرحمة يعالج به المسلم القضايا التشريعية وهذا المزيج يجعل المسلم يحاول السمو إلى أفضل الصور عند تطبيقه

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ١٦٣ دار الشروق القاهرة ١٣٩٥هـ .

للشريعة ، وهذا المزيج يجعل المسلم – أيضا – يجاهد في سبيل الوصول إلى ما يمكن أن نسميه الأفق المثالي للتطبيق ...

– ولقد تكون هذا المزيج أو هذه الروح بتأثير الروح القرآنية العامة التي تحث المسلمين على الحب والإيثار والتضحية واللين ، والتي تجسدت في أقوال الرسول وأفعاله أيضا ورآها المسلمون قرآنا يمشي على الأرض ، فحاولوا أن يقلدوها ؛ لأن الوحي أمرهم أن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة...

يقول الله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾ ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[3].

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) الإسراء: ٨٢.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

ويقول : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [(١)] .

ويقول : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [(٢)] .

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » [(٣)] .

- لقد تميز الإسلام بالمزج الشديد بين العدل والحب والرحمة ، فإذا كانت الزكاة «عدلًا» فإن المجتمع لا يستغني عن الحب والرحمة ، فليس بالزكاة وحدها مهما بلغ سموها تقوم الحياة المادية بل في الأموال حقوق غير الزكاة . وليس بالحق أو العدل وحده تقوم الحياة الإنسانية ، بل لا بد معهما من الحب والرحمة اللذين يرتفع بهما الإنسان فوق القوانين ، ليقترب من روح القوانين ، وفوق العدل ليكون إنسانًا ربانيًا رحيمًا جديرًا برحمة الله ، وجديرًا بأن يكون تلميذًا وتابعًا لرسول الله ﷺ الذي قال الله له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [(٤)] .

---

(١) النساء: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) متفق عليه .

(٤) آل عمران: ١٥٩.

وقال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وقد نجح الصحابة والتابعون وكثيرون في التاريخ الإسلامي في أن يكونوا نماذج حية لهذه الروح الإسلامية العالمية ..

فهذا أبو بكر ﷺ كان له يوم أسلم أربعون درهم مدَّخرة من ربح تجارته ، وقد ربح الكثير من التجارة بعد إسلامه ، فلما هاجر إلي المدينة مع صاحبه ﷺ لم يكن قد بقي له من كل مدَّخرة سوى خمسة آلاف درهم لقد أنفق ماله المدّخر في افتداء الضعفاء من الموالي المسلمين الذين كانوا يذوقون العذاب ألوانا من سادتهم الكفار ، كما أنفقه في برّ الفقراء والمعوزين .

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ وإنه لرجل فقير - يصيب أرضا بخيبر فيجئ رسول الله ﷺ فيقول : لم أصب مالًا قط أنفس عندي منه . فما تأمر به ؟ فيجيبه الرسول ﷺ : « **إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها** » ، فيجعلها عمر وقفًا على الفقراء وأولي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضعيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم صديقًا غير

(١) التوبة: ١٢٨.

متمول فيها . ويخرج بذلك من أعز ماله تصديقًا لقول الله : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [١] .

• وهذا عثمان ﷺ قبل الخلافة ترد عير له من الشام في وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجدب ، فإذا هي ألف بعير موسوقة برًا وزيتًا وزبيبًا ، فيجيئه التجار يقولون : بعنا من هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس .. فيقول : حبًّا وكرامة كم تربحوني علي شرائي ؟ فيجيبون : الدرهم درهمين فيقول : حبا وكرامة كم تربحوني علي شرائي ؟ فيجيبون : الدرهم درهمين فيقول : أعطيت أكثر من هذا فيقولون : يا أبا عمرو ! ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن الذي أعطاك ؟ فيجيب : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ فيقولون : لا فيشهد الله على أن يكون هذه العير وما حملت صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين .

• وهذا علي ﷺ وأهل بيته يتصدقون بثلاثة أرغفة من سويق كانت لهم ، على مسكين ويتيم وأسير ، ثم يبتون على الطوى ، وقد شبع المسكين واليتيم والأسير [٢] .

---

(١) آل عمران: ٩٢ .

(٢) العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ١٩٧،١٩٨.

• ولم تكن الرحمة الإسلامية للمسلمين فقط ، فالمبادئ لا تتجزأ ، والمنهج الإسلامي يعتمد العدل المطلق والرحمة المطلقة اللهم إلا إذا فرض عليه أن يكون قويًا شديدًا كما هو الحال في حالات الحروب التي اخترعت لها البشرية صورًا من الظلم الاجتماعي والإبادة الجماعية التي لا تعرف الرحمة ولا العدل .

• أما الإسلام فحتى في هذه الحالة الاستثنائية التي توجب الأخذ بكل ألوان الشدة وإلا فقد الإنسان دينه الذي يدافع عنه وأرضه التي يدافع عنها وحياته الشخصية .. لكن الإسلام حتى في هذه الحالة – بكل ملابساتها – التزم العدل والرحمة ، فاستثني غير المحاربين ، ووضع آدابا للحرب ، ونهى عن الغدر والاغتيال والتعذيب ، ونهى عن قتل المرأة والصبي والشيخ الهرم والعجزة والمنقطعين للعبادة – مهما كان دينهم – والمنقطعين للعلم والطبقات المدنية غير المحاربة ، كما أنه لم يسمح بقتل الأطباء والمرضين .. وقد أوصى رسول الله ﷺ المجاهدين بقوله : « **لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** » ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد ابن الوليد : « **لا تقتل ذرية ولا عسيفا** – أي عاملا – » وأوصى

أبو بكر – رضي الله عنه – أسامة بن زيد – رضي الله عنه – حينما بعثه إلى الروم بقوله : لا تخونوا ، ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا بقرة ولا شاة ولا بعيرًا ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له [1] !!

• فالرحمة نسيج التعاليم الإسلامية كلها ، لكنها الرحمة الإيجابية وليست الرحمة العاجزة السلبية ، كما أنه الحب الحقيقي الذي يراه الناس ويعملون به دينًا وأخلاقًا ، وليس الحب النظري الذي لا رصيد له في الواقع والذي يلوك كلمة (المحبة!!) وهو يتآمر على العالم ، ويكيل بكلين ويعمل لذاته ، ويفرض على الضعفاء الاتفاقات التي تحفظ عليهم فقرهم وضعفهم ، وتزيد الغني القوي شراسة وترفًا .

***

التكافل الاجتماعي وأساسيات الحياة :

كفل الإسلام بتعاليمه لكل الناس الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي مسلمين كانوا أو غير مسلمين – أساسيات الحياة .. وتعاليم الإسلام ذات طابع إنساني عام يتصل بتقدير القيمة

---

(١) انظر عبد الله غوشه : الدولة الاسلامية دولة إنسانية ص ٧٨ طبع عمان ١٣٩١ هـ .

الإنسانية نفسها .. بل وحتى الحيوانات والطيور حثت تعاليم الإسلام على الرحمة بها وتوفير حقوق الحياة لها والإحسان إليها ، فكيف بالإنسان؟!!

ومن هذه الأساسيات التي ضمنها الإسلام :

١- أمن السرب [1] ..ويتمثل هذا اللون في حماية : الدم والعرض والمال ، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع :« **ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...**» ومن ثم فقد ظل الإسلام بحمايته ورعايته هذه القضايا الثلاث وأمر بالضرب على أيدي المعتدين ، وفرض عليهم عقوبات رادعة وأقام حدودًا لأي عدوان ، أو ارتكاب جريمة ، من سفك دم ، أو قتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق ، أو سرقة أو اغتصاب ، أو قطع طريق أو زنًا بامرأة...وليست الشدة «المزعومة» في الحدود الإسلامية إلا تقديرًا من الإسلام لحقوق الحياة الأساسية ، وضربًا على أيدي العابثين بها المعتدين عليها.

٢- أمن الصحة : ويتمثل في الحفاظ على صحة المجتمع

---

(١) هذا المصطلح مقتبس من قوله عليه السلام : «من بات آمنا في سربه عنده قوت يومه...إلخ» .

باعتبارها وحدة واحدة لا تتجزأ قال عليه الصلاة والسلام : «لا يوردن ممرض على مصح» [١] .

وقال: « إذا سمعتم الطاعون بأرض قوم فلا تدخلوها ، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها » [٢] وهذا هو الحجر الصحي بمعناه الصحيح.. ومن مميزات الإسلام أن أول أبواب الفقه فيه (باب الطهارة) بينما كان بعض رجال الدين اللاهوتيين في العصور الوسطى يتباهون بأن المياه لم تمس أجسادهم لسنوات طويلة!!

٣- أمن القوت : إن واجب الدولة الإسلامية ضمان القوت للمجتمع الإسلامي ، فالله سبحانه يخاطب المؤمن بفعل الأمر: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [٣] .

وتوفير القوت للمسلم ولغيره – بل للحيوانات – فرض من الفروض الإسلامية ، يؤخذ من القادرين بقوة الشريعة وبصلاحيات الحاكم ، ففي المال حقوق غير الزكاة تؤخذ بحيث تكفي المجتمع.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد ابن ماجه.

(٢) رواه أحمد.

(٣) التوبة: ١٠٣.

٤- أمن التعليم : فمن واجب الدولة الإسلامية أن تعمل على إشاعة التعليم بين أفراد طبقات المجتمع الإسلامي.. وقد جاءت أول كلمة في القرآن فعل أمر بالقراءة وجاءت آثار كثيرة تأمر بطلب العلم وتجعله فريضة.. وعلى المجتمع المسلم تطبيق هذه الأوامر من خلال آليات ونظم مختلفة تناسب كل العصور وتستفيد من إنجازات التطور العلمي

٥- أمن الكوارث[1] : ويقصد به مواجهة الكوارث العامة التي قد تقع في المجتمع كالزلازل والفيضانات والأمراض الفتاكة ، سواء باتخاذ التدابير لحماية الناس منها ، أم بالوقوف مع الناس – بما يصلحهم عند وقوعها..!!

٦- أمن الدين : فالحفاظ على الدين هدف وواجب ورسالة.. بل هو خصوصية الأمة وقضيتها وجوهر عملها.. وبغيره تفقد رسالتها إلى العالم ، وتكون مؤهلة للذوبان في غيرها ، وتعيش في ضنك وفتن وهزائم ، كما هو واقعها..عندما تخلى كثير منها عن منهج الإسلام في السياسة والاقتصاد والاجتماع في العصر الحديث ، بعد نجاح الغزو الفكري والحضاري لها فالحفاظ على الدين – في داخل المجتمعات الإسلامية – صغيرة أو كبيرة –

---

(١) د. محمد الصادق عفيفي : المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان ص ٩٧ وما بعدها .

أساس من أسس البقاء ، كما أن نشره بين الناس واجب إسلامي عام.

- ومع تطور أساليب الحياة ، وتعاظم التحديات ، قد يصبح من أساسيات الحياة امتلاك الأمة والأفراد كثيرًا من الأشياء التي يحمون بها وجودهم وإلا تعرضوا للفناء والحكم بالإعدام عليهم من قِبل أعدائهم.. فلم يكن ملكية باكستان للقنابل الذرية ، ترفًا ..ومن الواجب على العرب ، في مواجهة إسرائيل - أن يمتلكوا هذه القنابل .. وإلا كانوا في حكم الذين لم يأخذوا حذرهم ، ولم يعدّوا ما يستطيعون من قوة يرهبون بها أعداء الله وأعداءهم!!

* والأمر نفسه قد يكون في التعامل مع الكمبيوتر والانترنت ووسائل الإعلام التي أصبحت أدوات للحفاظ على الوجود وللحياة في عصرنا ، ولمواجهة القوة التي لا ترحم الضعفاء - لأنها - أصلًا - لا تعرف الرحمة ، حتى وإن كررت في كل يوم ألف مرة عبارات الرحمة والحبّ والشفقة!!

القسمات الحضارية للتكافل الاجتماعي الإسلامي:

ليس التكافل الاجتماعي مجرد تنظيمات اختيارية يقيمها المجتمع المسلم ، كما أنه ليس نافلة تطوعية يفعلها المسلم فيثاب ، أو يتركها فلا ثواب ولا عقاب.. كلا ، فليس الأمر كذلك في

التكافل الاجتماعي.. وقد صور الرسول ﷺ المجتمع المسلم بسفينة ليس من حق أحد أن يخرقها مهما كان موقعه ؛ لأن في ذلك إغراقًا للجميع وعندما لا يتحقق التكافل الاجتماعي فيختفي العدل ، وينعدم التوازن ، ويظهر الترف في جانب ، والفقر الشديد في جانب آخر ، تكون النتيجة انتشار الأحقاد ، وظهور المذاهب الهدامة كالشيوعية والاشتراكية ، وتتعرض سفينة المجتمع للهلاك ، تقوم الثورات الحمقاء التي لا تبقي ولا تذر!!

وإذا كان الله تعالى يخاطبنا بقوله لنا : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1].

ويأمرنا أيضا بمقاومة الترف الذي يعده نذير الهلاك :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[2].

إذا كان الله يقول ذلك ، فإنما يقوله ليلفت أنظارنا إلى أهمية إزالة التناقض وعوامل الصراع في المجتمع ، فالمترفون الذين لا يعطون المستضعفين حقوقهم يتحملون الوزر الأكبر في تأجيج

---

(١) البقرة: ١٩٥.
(٢) الإسراء: ١٦.

عوامل الصراع ، ذلك لأن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف ، وتغلوا في انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن ، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمى الثراء الفاحش ، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها ، بصائرهم ، ويطمس على أرواحهم ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم ، ويحجب عنهم – وهذا هو الأهم والأخطر – كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا ، وموقفه في الكون ، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين علام الحضور والغياب ، والأرض والسماء [١] .

• لكن هل المترفون وحدهم هم الذين يتحملون وزر إغراق سفينة المجتمع؟

كلاً : إنّ الفقراء والمستضعفين يمكن أن يكونوا شركاء لهم في الوزر فربما استمرأ هؤلاء المستضعفون الفقر ورضوا به وعاشوا ينتظرون معونة الدولة أو معونة الأمة ، ناسين أن الإسلام ينهى عن التسوّل والكسل والعجز وترك التكسب ، ويأمر المسلم أن يستعيذ بالله ، من العجز والكسل والفقر ، وفي الوقت نفسه يأمر بالعمل ويجعله عبادة ، يكرّم العمال ، ويعتبر كسب الرجل

---

(١) د. عماد الدين خليل،العدل الاجتماعي ص ٤٠ طبع مؤسسة الرسالة، بيروت.

من يده أفضل المكاسب ، يقول عليه الصلاة والسلام: «**ما أكل أحدٌ طعامًا قطّ خيرًا له من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده**»[1].

وهكذا ، فبينما يقاوم الإسلام الترف والمترفين ، ويحملهم مسؤولية كبيرة في إغراق السفينة ، يتجه - أيضا - إلى الفقراء والمستضعفين القادرين على العمل ، يحثهم على عدم الاستسلام لواقعهم ، والأخذ بأسباب الغنى والقوة ... عن طريق العمل..

• وفي الوقت نفسه يضع ضوابط لحركة الجميع في الحياة ، بعيدًا عن الأثرة والكبر والفساد والانحرافات .. بل يأمرهم بأن يلتزموا - (بوسطية الإسلام وعدله) في كل أمورهم ، لأنهم شرائح من الأمة الوسط ، ولأنهم ملزمون بالمنهج الوسط... وعندما يعرض القرآن لقصة (قارون) ، وهو النموذج الذي يضعه الإسلام في القمة من الترف الذي يستحق أشد أنواع العقاب - يورد القرآن في ثنايا عرضه للقصة ونتائجها بعض القواعد التي يتجه بها إلى الجميع استفادةً من هذا الدرس البليغ.. يقول تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ

(١) رواه البخاري وأحمد وابن ماجه .

ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1].

وفي الآية نلمح الوسطية والتوازنية والعدل بين الدنيا والآخرة ، وبين المترف والفقراء ، كما نلمح نهي القرآن عن استغلال المال للفساد في الأرض.. وتنتهي بنا (قصة قارون) عند دروس أخرى تقدمها لنا الآيتان التاليتان:

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2].

فقد أصبح المنبهرون بقارون مؤمنين بفضل الله عليهم ، حين لم يجعلهم مثل قارون مترفين ، وإلا لكان مصيرهم الخسف بهم..

• وقد آمنوا بأن بسط الرزق بيد الله وأنه يفعله لحكمة ، وهو ليس خيرًا دائماً.. وتقدم الآية الثانية قانونًا ربانيًا .. بأن الدار الآخرة ليست لطلاب الاستعلاء والإفساد .. بل للمتقين!!

---

(١) القصص: ٧٧ .

(٢) القصص: ٨٢ ، ٨٣ .

- ومن جانب آخر يعالج القرآن قضايا توفير الحاجات البيولوجية والغذائية للناس عن طريق الحث على إنتاجها وتنميتها بالطرق الحلال والابتعاد بها عن الطريق الحرام التي تؤدي بأصحابها ففي حوالي مائة موضع في القرآن الكريم ترد كلمة (الأكل) بتصريفاتها المختلفة ، وفي حوالي خمسين موضعًا ترد كلمة (طعام) بتصريفاتها المختلفة ، وفي حوالي ثلاثين موضعًا ترد كلمة (شراب) بتصريفاتها المختلفة ، وفي حوالي مائة وعشرين موضعًا ترد كلمة (الرزق) بتصريفاتها المختلفة[1]، وفي أكثر من ثلاثين موضعًا من القرآن الكريم ترد الدعوة لإطعام الفقراء والمساكين وسدّ حاجاتهم الأساسية ، وفي أكثر من أربعين موضعًا يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات والثناء على دافعيها والتنديد بمانعيها. وفي أكثر من سبعين موضعًا يتردد ذكر الإنفاق وتسلط عليه الأضواء من كافة زواياه [2] ... وفي مجال التكافل الاجتماعي يدعو القرآن المسلمين أن ينظروا إليه كقضية أساسية ، حتى لو أدى الأمر إلى الجهاد إنقاذًا للمستضعفين من أيدي جلّاديهم وظالميهم..

---

(١) د. عماد الدين خليل،العدل الاجتماعي ص٦٢.

(٢) المرجع السابق ص ٥٣.

يقول الله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) .

ويقدم الإسلام عددًا من المبادئ ذات الأبعاد الدينية والحضارية من أجل أن تكون وسائل أو آليات تكفل تحقيق التوازن الاجتماعي ، كما تكفل تحطيم الثراء الفاحش الذي يؤدي إلى الخلل الاجتماعي .. إن الإسلام يجعل المال كله مال الله ، ويخاطب المسلمين وهو يأمرهم بالانفاق قائلًا : ﴿مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (2) . وهذا أول المبادئ .

• وهو يجعل المال وسيلة لا غاية ، أما الغاية فهى تعمير الأرض وعبادة الله بالمعنى الشامل للعبادة.. قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (3) .

• وهو يحرم الربا والمكاسب غير المشروعة ، وسائر صور الاحتكار والغش وأكل الأموال بالباطل ، والطغيان في حالة الثراء ، كما توّعد كل أصحاب الأموال بأنهم سيسألهم الله عن

---

(1) النساء: ٧٤.

(2) النور: ٣٣.

(3) الذاريات: ٥٦.

أموالهم من أين اكتسبوها ، وفيما انفقوها.

• ونظام المواريث يقوم بتفتيت الثروات بين الحين والحين..

• ومن المبادئ أيضًا تحريم اكتناز الأموال وعدم تشغيلها وقد توعد الله هؤلاء بعذاب أليم.

• ومن المبادئ أيضا محاسبة كل الناس من مصادر ثرواتهم عند اللزوم وفق قانون : من أين لك هذا؟ وقد كان الخلفاء يطبقونه مع ولاتهم.

• ومن المبادئ أيضًا الحثّ على الانفاق العام في سبيل الله والتحذير من البخل وعواقبه .. قال تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [2].

---

(١) محمد: ٣٨.

(٢) آل عمران: ١٨٠.

• وبالإضافة إلى هذه المبادئ أوجب الإسلام بعض الفروض وسنَّ بعض النوافل من أجل أن تكون روافد خير لتحقيق التكافل الاجتماعي ، ومنها ، وعلى رأسها ، فريضة الزكاة ، وصدقة الفطر ، والكفارات ، والأضاحي والنذور ، والوقف ، وواجب الضيافة ، والوصيّة ، وحق الماعون ، والهدايا أو الهبات في المناسبات المختلفة...

• وقد أحاط الإسلام كل ذلك بسياج من التربية النفسية والوجدانية ، ووَصَلها بحبّ الله وإيثار الآخرة على الدنيا ، وَوَعَدَ بالجزاء المضاعف عند خلوص النوايا وتحرِّي الحلال.

★ وكان من شأن هذه الآليات أن ينطلق المجتمع الإسلامي في التاريخ مثل سفينة يشعر جميع ركابها بمسؤوليتهم عنها – إلا الشواذ – مقدمين مجتمعًا يقوم على التراحم والأخوة ، والشعور بالهمّ الإسلامي الواحد وبالجسد الإسلامي الواحد الذي يتأثر بحالة كل عضو فيه ، ويبرز التعاطف معه ، ويُقَدِّم له – مهما تناءت الديار – العون والمساعدة.

• إنه مجتمع يقوم في تكافله على العقيدة والشريعة والأخلاق.. ويتجاوز نطاق الماديات ، لكنّه لا يتجاهلها .. بل إنه يمزج بين الماديات والمعنويات ، كما يهتم بالنيات

والأهـداف ، وبـالفرد والمجتمـع ، وبالرجـل والمـرأة ، وبـالغنى والفقير ، والقوى والضعيف!!

• إنه ليس مجتمع تناقض وصـراع ، بـل هـو مجتمـع تكافـل وتراحم ، ذلك لأنه مجتمع لا يفـصل بـين مـا لله ومـا لقيـصر ، فكل شيء فيه لله ، وكل الأعمال يمكن أن تكون دينا وعبادة.

• إنه مجتمـع تمتـزج فيـه الـدنيا بالـدين ، والعلـم بالعمـل ، والوحي بالعقل..

• إنه مجتمع المعادلة الحـضارية الـسليمة ، الـذي يـضع كـل إنجازات أوروبا وأمريكا والحضارة المعاصرة في بوتقة الإيمان.

• ولن تسعد البشرية إلّا إذا عاد هذا المجتمع لمكانتـه ودوره ، ورأتْ فيه البشرية النموذج الذي تحتذيـه ، والـذي ينقـذها مـن فلسفة الصراع والتناقض ، وطغيان المادة ، وإهمال الروح!!

• ويوم يتحقق هذا يتحقق التكافل الإنساني العام ، ويتحقق العـدل للجميـع .. بكيـل واحـد.. حتـى لـو اختلفـت الأديـان والمصالح .. وهذا مـا ينبغـي أن يُجاهـد في سـبيله المـسلمون.. والمنصفون من طلاب الحق والعدل والخير.

***



جناحا الحضارة الإسلامية

العقل : الوسيلة الوحيدة لفقه الدنيا والدين

الأنبياء قادة العلم

وعلم آدم الأسماء كلها

الدين والعلم كلمتان مترادفتان في القرآن: ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم

لا نزاع بين الدين والعلم :

- **لا في المنهاج**
- **ولا في الموضوع**
- **ولا في الأهداف**

العقل: وسيلة اكتشاف الدنيا وفقه الدين:

يجب الانطلاق من مقولتين نراهما صحيحتين كل الصحة...

- المقولة الأولى: إنه ليس بالدين وحده يحيا الناس.

- والمقولة الثانية: إنه ليس بالعقل وحده يحيا الناس. فالدين لن يعمل في الحياة عمله إلا بواسطة أصحاب عقول.. والعقل لا يستطيع وحده أن يبني حياة إنسانية، دون معالم الدين، ودون هدى الوحي، وغذاء الروح والضمير، والمنظومة القيمية والأخلاقية، وغير ذلك مما ينبع من الدين، ولا يستطيع غير الدين أن يقدّمه.

- ولو كان الدين وحده يستقيم بدون العقل لكلف الذين لا عقول لهم، ولكن كل الأديان تربط التكاليف الدينية بالعقل، وتعفي منها الذين لا عقول لهم، صغارًا كانوا أو سفهاء!! وكذلك لو كان العقل قادرًا على فك ألغاز الوجود وقيادة خطوات الإنسان، من غير الخدمات العظيمة التي يقدمها له الدين، ومن غير الحراسة الكبيرة التي يحميه بها الدين لما كانت هناك حاجة بأن يرسل الله الرسل إلى الأرض، وأن ينزل عليهم الكتب التي تحمي العقل من نفسه ومن الأهواء والغرائز وتعبّد له الطرق وتمهده، وتضع له شارات الحق والباطل، والخير والنور، والصعود والهبوط، والسعادة والشقاء.

وهـؤلاء المرسـلون لم يطلبـوا أجـرًا ، ولم يبنـوا مـن خـلال رسـالاتهم قـصورًا شـاهقة ، بـل كـانوا أقـرب إلى الفقـراء والمستضعفين منهم إلى الأغنياء والمترفـين ، وقـد عـانى أكثـرهم وعذّبوا وقُتل بعضهم ، ومع ذلك فقد رفـضوا جميعًـا أن يبيعـوا رسالتهم أو أن يخونوا الأمانة التي كلفهـم الله بهـا ، بـل صـبروا على ما كذّبوا حتى أتاهم نصر الله ، وانتشرت كلمـة الله.. ولـو كان الأمر يقوم بالعقل وحده ، لما كان هناك داعٍ لآلاف الرسـل الذين أرسلهم الله ، ولما كـان هنـاك داعٍ لـصحف إبـراهيم ولا زبور داوود ، ولا لتوراة موسى ، ولا للإنجيل الذي نـزل علـى عيسى.. ولا للقرآن الذي نزل على محمد ﷺ .

- ومن الرائع أن هؤلاء المرسلين بالكتب التي نزلـت علـيهم - ما كبَّلوا العقل ولا قيدوه ، بل أرشـدوه ووجهـوه ، وأخـذوا بيده إلى الطريق الذي يضمن العافية - والسلامة والخـير الـدائم وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، واحترام حقـوق الفـرد صـاحب العقل الواحد ، والآخرين من أصحاب العقول الذين يعيـشون معه ، بل إن الأديـان - في حقيقتهـا - جعلـت عمـل العقـل في اكتشاف آلاء الله وفي تسخير قوانين الله في الكـون - عبـادةً مـن العبادات ، فبدلًا مـن أن يكـون العلـم للعلـم ، والفـن للفـن ، يكون العلم والفن لخدمة الإنسان ولتحقيق الخير ، وتطبيـق مـا

ورد في الكتب السماوية!!

- ولا تؤاخَذُ الأديان بانحرافات المنحرفين ، وإلا لسقطت كل مبادئ الدنيا ، وكل مذاهبها ونظمها ، كذلك لا تؤاخذ الأديان بالانحرافات التي أسقطها عليها المنحرفون سواء نجحوا في الإسقاط على مصادرها أو نجحوا في تأويل تعاليمها والانحراف بها عن غايتها ، فالله ورسله أبرياء من هؤلاء المحرفين للكلم عن مواضعه ، كما أن الله ورسله أبرياء من الكافرين بالدين كله وبالوحى كله ، الذين يرون أن الله لم يرسل رسلًا ولم ينزل كتبا ، وأنه يمكن بالعقل وحده أن يعيش الإنسان!!

- إن هؤلاء المنكرين للأديان الكافرين بالله ورسله شأنهم شأن هؤلاء المشوهين للأديان الكاذبين على الله ورسله وهم جميعًا أعداء الله وأعداء الإنسانية ، وقادتها إلى الخراب والدمار...

ومنذ خلق الله آدم ، والدين والعلم معًا يتعانقان ويتكاملان ، ويساعد أحدهما الآخر .. وكما كان نوح - عليه السلام - (الأب الثاني للبشرية) نبيًا كان كذلك صانع أشهر سفينة في التاريخ.. وكما كان داود نبيًا كان أول من صنع من الحديد أقمصة ودروعًا ، وكان ابنه النبى سليمان - عليهما السلام - أول من سخرت له الرياح تحمله وتحمل جيوشه ، وسخرت له

الشياطين تغوص في أعماق البحار..

وجاء الرسول محمد ﷺ وأنزل الله عليه كتابًا ، جاءت أول كلمة فيه : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾.

إنها رحلة الدين والعلم معا... فلْنحاول استكشاف أبرز معالم هذه الرحلة الرائعة!!

معًا على الطريق منذ البداية:

منذ ظهر الإنسان على وجه الكون ، خليفة لله في الأرض ، وثمة مصباحان منحتهما له العناية الإلهية ، الوحي «الدين» والعقل «العلم» وبهما معًا أطلق سراحه من الجنة ليسير رحلة هذا الكوكب الأرضي.

فالدين بدأ مع آدم أبي البشرية – والعلم بدأ معه أيضًا – كما تُجمِع على ذلك كل الكتب المقدسة التي هي المصدر الوحيد للتاريخ لهذه الفترة المبكرة جدًا من حياة البشرية ، وإنه لمن باب العقوق والغرور أيضا أن يضع بعض الناس تعريفات للعلم ، تجعله قاصرًا على عصر بعينه ، بل تجعله – كما يقول ج برونوفسكي : «من ابتدع الأعوام الثلاثمائة الأخيرة ، حوالي ١٦٦٠م» حينما نفضت أوروبا عنها ذلك الكابوس الطويل من

الحروب الدينية واستقرت لها الحياة على التجارة والصناعة [١] .

وفي تعميم شديد تذهب رواية أخرى إلى أن العلم ظاهرة متأخرة في حياة البشرية .. وأن البشرية عاشت قبل ذلك عشرات الألوف من السنين دون أن يتكشف نشاطها عن تلك الظاهرة التي نطلق عليها : اسم العلم [٢] .

إن هذه الجرأة في الحكم الظالم على مراحل تاريخية طويلة وحضارات مندثرة ، هي بذاتها ليست من العلم في شيء ، بل هي غرور عصري محدود الرؤية ، والأليق بمنهج العلم أن لا يكذب ما لا يعرف وأن يتواضع ، فيضع نفسه – في حركة التاريخ – باعتباره امتداد لمراحل سابقة ، وليس نبتة مقطوعة الجذور ، وما علم العصر الحديث – في رأينا – إلا حلقة في سلسلة طويلة بدأت مع بداية البشرية ولن تنتهي إلا بنهايتها .

إن الدين والعلم قد اصطحبا الإنسان منذ أول مشكلة – أرضية – فرضت نفسها عليه ، أي منذ رأى مشرق الشمس ومغربها يتكرران كل يوم ، ومنذ رأى النجوم ولاحظ ثبات

---

(١) برونوفسكي : العلم والبداهة . نشر دار النهضة العربية بمصر.
(٢) انظر د. فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ٥٧ نشر الكويت.

بعضها وحركة بعضها الآخر ، ومنذ واجه القوى الطبيعية التي هددت وجوده[١] .

فحاول أن يتلمس لكل ذلك تفسيرًا وحلًّا ، فواجه الأمر بجانب ديني وجانب علمي ، وأخفق هنا تارة ونجح هناك تارة أخرى .. لكنه كان يتحرك بالمصباحين معًا ، ولم توجد حقبة في التاريخ خلت فيها الأرض من الدين ، أو خلت من العلم ، حتى وإن اعتورهما الضعف في بعض فترات المسيرة البشرية المتعرجة الطويلة .

ولعل تعريف الدين وتحديد مفهوم للعلم مما يساعد على إبراز هذه الحقيقة .

* * *

ما الدين وما العلم ؟

تنطلق تعريفات الدين والعلم من التصور السابق لرسالة كل منهما في الحياة وطبيعة هذه الرسالة وحجمها ، وبالتالي فلنا أن نتوقع تعريفات لهما بمقدار هذه التصورات .

ويرى «شلير ماخر» أن الدين مجرد شعور بالاعتماد على

---

(١) انظر دكتور محمد حسين هيكل : الإيمان والعلم والفلسفة طبع مصر ١٨، ١٩.

المطلق ، ويرى «ها فلوك اليس» أنه أيضًا مجرد إحساس مباشر بالاتحاد مع العالم ، أي ذوبان الفردية في الكونية ، بينما يري «موراي : أنه طريقنا للاتصال بقوى العالم العظمي ، أما «شبنجلر» فيصفه بأنه «الميتافيزيقا التي تعيشها ونجربها ، أي ما لا يمكن أن نفكر فيه كيقين ، والأعلى من الطبيعة كواقع ، والحياة كوجود في عالم ليس واقعًا ولكنه صادق» [1].

وهو تعريف أكثر امتدادًا كما نرى ، ولكنه لا يصل إلى التعريف الإسلامي الذي يرى في الدين : انقيادًا لله وفق قوانينه الكونية بالأسلوب الذي يشرعه هو ، سواء على مستوى العبادات الفردية أو المعاملات الجماعية ...

أما العلم : فهو في رأي بعضهم مجرد العلم الوضعي على التجربة وهذا تعريف مطاط يتغير بتغيرالاهتمامات ، ففي القرن التاسع عشر كان الاهتمام مركزًا على العلوم الجيولوجية ، أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فكان الاهتمام مركزًا على علم الفلك [2] ، وفي القرن العشرين أصبح العلم في مخيلة البعض وكأنه مجرد «التكنولوجيا» الحديثة وغزو الفضاء .

لكن هذه التعريفات لا تمثل وجهه نظر أكثر العلماء – الذين

---

(١) انظر : ول ديورانت : مباهج الفلسفة ١٩٨٢، طبع القاهرة .
(٢) انظر : برونوفسكي : العلم والبداهية ص ٦٤ .

يحددون للعلم دائرة أكثر شمولًا فيرون أن سلسلة من تصورات ذهنية «المعاني المجردة» ومشروعات تصورية «افتراضات» مترابطة متواصلة هي نتاج حدثين : الملاحظة والتجريب ، بحيث تلد الفكرة فكرة ، وتؤدي التجربة إلى تجربة بصورة متطورة ومستمرة[1] .

والحق أن العلم منهج للتفكير في منطقة قابلة للبحث « الطبيعة » بوسائط معينة ، بغية استخلاص «القوانين الكونية» وما يتبعها من جزيئات تفسر هذا الكون وتسخره للإرادة الإنسانية ، إنه ليس تفكيرًا لفئة خاصة ، بل نوع من التفكير المنظم الواعي بأوليات الأشياء ، والمتسم بالنزاهة والشمولية والدقة ، والرغبة الجادة في الوصول إلى الحقيقة المجردة عن طريق العقل الذي يمثل ملكة تركيب عليا قادرة على تجاوز الجزئي إلى الكلي ، وطرح الأفكار المضادة ، وصياغة القوانين العامة !!.

إننا نشير هنا إلى أننا نتجاوز التعريفات الرافضة والمشكلة في وظيفة العلم ، ونرى أن هذه التعريفات مجرد نظرات شخصية متشائمة ولسنا هنا بصدد الوقوف عند مثل هذه النظرات الضيقة.

---

(١) انظر : (بتصريف) جيمس كونانت : مواقف حاسمة في تاريخ العلم ص ٤ طبع دار المعارف .

رحلة الدين والعلم في التاريخ :

لم تصل بنا التعريفات السابقة ، كما لم يصل بنا فهمنا الخاص لمعنى الدين والعلم إلى أن ثمة تعارضًا بينهما ، بل إن التكامل بينهما هو الأمر الأقرب للصواب ، فكلاهما محاولة للالتحام بالكلي أو المطلق ، والانسجام مع القوانين الكونية ، وكشف حجب الحقائق كما هي وفق طريقتين متكاملتين: طريق يشرعه الله ، وطريق يجتهد فيه العقل ، وليس ما يشرعه الله إلا سياجًا يحوط مسيرة العقل من الحيرة والزيغ ، وليس- كما يتصور البعض – عقبات في طريق مسيرة العقل وكما أن التعريفات لا تفيد وجود تضاد بين الدين والعلم ، فإن المسيرة التاريخية لمبادئ الدين والعلم المنبعثة من أصولهما ومبادئهما «وليس سلوك رجال الدين» لا تفيد تنافرًا ما بل تفيد للتعاضد والتكامل ، وإذا كانت حضارة عصر النهضة انبثقت عنها الحضارة الحديثة فقد أنتجت لنا روح خصام بين الدين والعلم فإن مبعث هذا في الحقيقة هو موقف رجال الكنيسة – وليس الدين نفسه...

لقد وقف رجال الكنيسة ضد العلماء وأحرقوهم ونكلوا بهم .

ويضاف إلى ذلك موقف بعض رجال العلم أيضًا .. هؤلاء الذين اتخذوا رد فعل قاس ضد رجال اللاهوت المتشددين

فذهبوا إلى تحطيم كل ما هو « ثابت » في الكون والفكر!!.

لقد نشأ الفكر – الذي هو أب للفلسفة والعلم – من الدين نفسه – وبما أن الفكر قد بدأ فلسفيًّا أقرب إلـي « الميتافيزيقية » فإنه – في هذه المرحلة – كان يعيش في محضن أبيه « الدين » بطريقة مباشرة ، وقد ظلت « الفلسفة » ردحًا من عمرها تحاول خدمة والدها الشرعي ، عن طريق تكييف المعقول وتوجيهه بحيث يخدم المنقول الإلهي ، ولم يحدث التمرد من جانب الفلسفة على الدين إلا في تلك العصور التي كانت تتوه فيها معالم الدين الحق ، وذلك مثل العصر اليوناني الذي برزت فيه الأساطير بشكل سيئ وانحطت صورة الألوهية إلى درجة مزرية على يد المتاجرين بالألوهية « الميثولوجيا الشعبية » وقد نسب الأثينيون إلـي الألهة كل ما هو مخجل أثيم في البشر ، وسخر للسوفسطائيون من الألوهية ، وظهرت – بالتالي – الفلسفة ساخرة متعالية غير حافلة بالمعتقدات الدينية [١] وذلك كرد فعل للتصورات البدائية التي روجها الكهنة الوثنيون لكن الفلسفة لم تلبث أن حاولت العودة إلى محضن الدين على يد سقراط الذي يعتبر الجريمة أسوأ من الموت ، ويعتبر الموت دخولًا لقصر الله.

وقد سلم أفلاطون وأرسطو بالاعتقادات الموروثة في ألوهية

---

(١) اميل بترو : العلم والدين ص١٠ طبع القاهرة .

السماء وميز أفلاطون الفيلسوف بأنه القادر على فهم فكرة الله سر الحياة المقدسة [١] حتى إذا جاء الرواقيون أخذوا على عاتقهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المعتقدات الدينية ، فأوّلوا كل ما يمكن تأويله من الأساطير والرموز.

ثم كانت الأفلاطونية الحديثة التي نظرت إلى جوهر العقل ، وحاولت أن تتعالى بمذهبها في الواحد اللا متناهي فوق العقل نفسه ، وسمت بالألوهية عن الأشياء والحياة عن الفكر نفسه.

وإن كانت قد وضعت سلمًا من الكائنات المتوسطة بين الصور العليا للموجودات والصور الدنيا ، فسوغ أفلاطين وتلميذه «فرفريوس» من وجهة نظر العقل جميع مبادئ الدين ، دون تمحيص عقلي مؤولًا القرابين والأيقونات والسحر بأنها رموز متوسطة بين المحسوس والمعقول ، وأنها تشارك في الحقيقة بما تلعبه من دور ضروري يوجه الإنسان نحو الجوهر اللا مادي الذي ليس كمثله شيء [٢] .

أما في مصر القديمة – مهد الحضارات – فإن فكرة الإيمان والتوحيد لاقت رواجًا كبيرًا على الرغم من التقدم العلمي الذي عرفت به مصر خلال هذه العصور ، وقد بلغت فكرة

(١) انظر : محمد عبد القادر :بيولوجية الإيمان ص ٢٠.
(٢) بتصرف: بترو: العلم والدين ص ١٤، ١٥.

التوحيد ذروتها على يد (إخناتون ١٣٧٥ قبل الميلاد) الذي ولى الحكم بعد أبيه أمنحتب الثالث.

وكان إخناتون رجل دين وفيلسوفًا معًا ، ولهذا دخل في صراع مع المتاجرين بالدين من كهنة طيبة أصحاب النفوذ. وقد عمد إخناتون إلى إبراز الإله (أتون) في صورة تجريدية ، وتوحيدية ، وعالمية ، تقترب كثيرًا من صورة الإلهية في الأديان المعروفة [1] .

وفي الهند – كما في مصر واليونان – ظهرت النزعة الدينية والفلسفية أيضا: وقد تجلت في الهندوسية القديمة «البراهيمية» واجتمعت في شخصية كل من «بوذا» و«فاردهمانا ماهاميز» شخصية الحكيم «الفيلسوف» ورجل الدين معاً.. ونشأ عنهما مذهبان فيهما قدر من الفلسفة وقدر من السمو الروحي ، هما البوذية ، والجينية التي تعتبر ابنا ثانيًا للبراهيمية . وفي الصين ظهرت الكونفوشيوسية سنة ٥٥٠ قبل الميلاد ، فأحيت التراث الفلسفي للصين ، ممثلا في الكتب الدينية الخمسة القديمة التي يمتد أولها إلى ٣٠٠ سنة قبل الميلاد.

وفي اليابان ارتبط اليابانيون بالديانة «الشنتوية» التي تعني

(١) انظر : د. محمد محمود عبد القادر : بيولوجية الإيمان ص ٣١ وما بعدها.

طريق الأرواح الخيرة وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد.

وفي فارس ظهرت المجوسية في القرن الخامس قبل الميلاد على يد الحكيم (سبتا مازاراززوسترا).

وهكذا نستطيع أن نستعرض بقاع الأرض كلها ، لنرى صورًا من المسيرة المشتركة بين الحكمة (الفلسفة) والدين ، ولنرى أن الفلسفة والدين كانا يفرضان تأثيرهما ما داما في حدود الحق والعقل والخير للإنسان ، وأنهما كانا سينحدران معًا إذا أصبحا لعبة في يد سوفسطائيين أو كهنة متاجرين.

وعندما جاءت اليهودية إلى العالم كانت – على يد نبي الله موسى عليه السلام وأتباعه الأوائل – دفعة جديدة إلى تقدم العالم.

وكانت الشريعة الموسوية أكبر حافز لتكوين خلق اليهودي القوي ، والتمكين من تنظيم الحياة والحث على العناية بالنفس والجسم والرفق بهما ، وقد أعطت اليهودية للعالم التوحيد ، كما أعطته أول تبشير بالعدالة الاجتماعية ووحدة الإنسانية [1].

وكانت في عهد موسى وهارون إحياءً للحنفية الإبراهيمية التوحيدية الكريمة ولدعوات كل الأنبياء السابقين ، فلما جاء

---

(١) ول ديورانت: مباهج الفلسفة ٢/ ٣٥.

الفكر المسيحي لم يكن ثمة مجال لخلق صراع بين الدين والعقل في مراحله الأولى.. لقد كانت المسيحية تركز في المراحل الأولى على المحبة ، كما أن فكرة الألوهية فيها لا تتعارض مع أى إبداع أو تفسير عقلي للظواهر ، فكل ما في الكون إنما هو نماذج لقدرة الله خلقها من العدم بمشيئته المطلقة « وقد التقت المسيحية بالفكر العقلي والعلمي متشحًا برداء الفلسفة اليونانية ، ووجدت في هذا اللقاء مناسبة تجلو فيها لنفسها روحها الخاص بها ، فقدمت المسيحية الإيمان بالوحى السماوي والإحساس ببؤس الإنسان ، والإيمان بإله المحبة والرحمة.. ثم آثرت المسيحية أن تأخذ من الفلسفة اليونانية ما يفيدها في تدعيم عقائدها؛ فأخذت علم الوجود (الأنطولوجيا) وأخذت المنطق الأرسطي بعد أن صبغته بصبغة صورية بحتة»[(١)].

وفي الحضارة الإسلامية كان الالتحام بين «العلم» وبين الدين واضحًا وقويًا ، بل إن الإسلام جاء منذ آياته الأولى يعلن ميلاد عصر «العلم» والإيمان عن طريق «العلم» .. يقول الله في القرآن الكريم : ﴿اقْرَأْ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٢)].

---

(١) انظر اميل بترو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص١٥.
(٢) سورة العلق: ١ – ٥.

لقد حشد القرآن ما يقرب من سبعمائة آية في تحريك العقل البشري وانتشاله من وهدة التقليد والتبلد ، كما حشد عشرات الآيات في إيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس ، وعشرات أخرى في إيقاظ التفكير والتفقه ، فضلًا عن آيات طلب البرهان والحجة والجدال بالتي هي أحسن.. بل إن القرآن أضاف حقيقة في غاية الأهمية هي أنه أطلق كلمة العلم على الدين[1] ، كأنما يمزج بينهما في مرحلة العصر القرآني مزجًا لا فكاك له. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن.

يقول القرآن الكريم مخاطبًا النبي عليه الصلاة والسلام : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2] .

أي من بعد ما جاءك من الدين – ويقول : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[3] .

أي الدين – ويقول الله عن القرآن نفسه : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم

---

(١) انظر : عماد الدين خليل – تهافت العلمانية ص ٢٧ طبع بيروت (بتصرف) .

(٢) البقرة: ١٤٥.

(٣) آل عمران: ٦١.

بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ ﴾ (١) .

فالآيات كلها تفيد أن ما أنزل الله على محمد من دين إنما هو «العلم» وأن القرآن على «علم» كما تبين آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

هذا المزج الذي يتجلى في أوضح صورة في التارخ الإنساني بين العلم والإيمان.

وحسبنا أن نشير إلى أن كلمة «علم» بتصرفاتها المختلفة قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من سبعمائة وخمسين آية!!

تلك هي بعض معالم مسيرة الدين والعلم في أصولها وأهدافها أى في مستوى «التنظير» .. أما مسيرة «التطبيق» أعني مسيرة الرجال الذين حملوها ، وتصدروا الدعوة إليها فتلك قضية أخرى منفصلة سنتناولها في الصفحات التالية.

قضية النزاع بين الدين والعلم :

يستطيع المؤرخ الأمين أن يزعم بأن النزاع بين الدين والعلم لم يظهر في مراحل كثيرة من التاريخ : لأن « العلم » كان في موقف المستسلم اليائس من المعركة ، وأن السيطرة كانت مطلقة

---

(١) الأعراف: ٥٢.

(٢) الروم: ٥٦.

لرجال الدين. ولما شب العلم عن الطوق أقيمت له على يد كنيسة العصور الوسطى المذابح الهائلة التي ترتعد لها الفرائص .

وقد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لعلاقة الكنيسة الأوربية في العصور الوسطى بالعلم. لكننا لم نشهد في عصور التاريخ المختلفة ، ولا في سير الأنبياء الآخرين مثل هذا الأسلوب .

كما أن اليهودية التي حفلت أسفارها بكثير من التناقضات العقلية لم تشأ أن تلعن مثل هذه الحرب على العلم فيما نعلم من تاريخها .

بل إن اليهودية – حتى في العصر الحديث – قد قدمت أكثر العلماء شذوذًا وتمردًا على القيم الدينية ، ومع ذلك افتخرت بهم ، ولم يلحقهم أذى من قبلهم ، بل نالهم الأذى من رجال الكنيسة المسيحية .

أما في الحضارة الإسلامية فعلى مستوى التطبيق الإسلامي – فضلًا عن موقف القرآن – فإن ما يسمى بالنزاع بين العلم والدين أمر لم يظهر كقضية في الحضارة الإسلامية ، بل قد اعتبر العلماء الطبيعيون والفلكيون والرياضيون أنفسهم في عبادة لا تقل عن عبادة إخوانهم علماء الدين ، وقد وضع علماء الإسلام منهجًا تجريبيًا حسيًا وعقليًا في البحث مختلفًا عن المنهج اليوناني . كما وضعوا نظريات علمية مستقلة للمعرفة

« ايستمولوجيا » . وقد ظلت آثار هؤلاء العلماء المسلمين هي الأثار العلمية المتعمدة خلال العصر الوسيط كله ، ومن هؤلاء العلماء : ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغري ، وجابر بن حيان مكتشف الصودا الكاوية وحامض الكبريتيك بعد تقطيره ، والرازي مكتشف زيت الزاج ، وعدة أمراض ، وابن الهيثم مكتشف علم البصريات ، والفرغاني واضع علم المثلثات ، والكندي مؤلف علم البصريات ، والإدريس مثبت كروية الأرض [١] ، فضلًا عن ابن حزم الذي عقد فصلًا كاملًا عن إثبات كروية الأرض نقلًا وعقلًا في كتابه الموسوم باسم « الفصل في الملل والنحل » ، وابن البيطار في الصيدلة ، وابن الحفيد في العدوي ، وغيرهم ممن لا يمكن حصرهم في هذا المقام. والمهم أنهم جميعًا كانوا يتعبدون بعلمهم ويتقربون إلى الله به ، دون أن يشعروا بأي انفصال ، فضلًا عن نزاع بين العلم والدين ، بل كثيرًا ما كان بعضهم فقهاء في علوم الدين ورجال علم في الوقت نفسه !!

وقد بدأت القضية تطفو على السطح مع ظهور عصر التنوير أو عصر النهضة الأوربية ، وبداية الوقوف – بحزم – من رجال العلم ضد سيطرة الكنيسة المطلقة ، وكان من أبرز هؤلاء

---

(١) أنور الجندي : الإسلام والتكنولوجيا نشر مصر ٤٠،٤١ .

الرجال فرنسيس بيكون (١٦٠٦) ورينيه ديكارت (١٧٥٠) وباروخ أسبينوزا (١٦٧٧) وجون لوك (١٧٠٤) ودافيد هيوم (١٧٧٦) وفولتير (١٧٨٨) وعمانويل كانت (١٨٠٤) وجوهان فون جيته (١٨٢٣) وجورج هيجل (١٨٣١) وآثر شوبنهور (١٨٦٠) ورالف امرسن (١٨٨٣) وهربرت سبنسر (١٩١٠) وفردريك نيتشه (١٩٠٠) ووليم جيمس (١٩١٠) وجان جاك روسو وغيرهم ، وقد بالغ هؤلاء في تحديهم فألقوا حبة الحنطة مع قشرتها ، ورفضوا الدين والكنيسة معًا ، وتعاونوا - بالتالي - مع الكنيسة التي وقفت ضد العلم في إشاعة جو «العلمانية» و«اللادينية» و«المادية» في روح المدنية الحديثة. وذاق العالم الكثير من الدمار من جراء هذا الانفصام والصراع في أخلاقه وقيمه التي آمن بها على امتداد تاريخ البشرية كله ، بحيث بدا صرح الفكر الإنساني وكأنه بناء آيل للسقوط .

* * *

اعتراضات اللادينيين ضد الدين :

سنطرح تلك الافكار الثورية والعبارات الصارخة التي يقولها اللادينيون عن الدين ، لأننا هنا في مجال بحث رصين ، ولسنا في مقام استعراض شعارات « أيديولوجية » فارغة ، يلوكها البعض

دون وعي بمضمونهما.

وكما أننا سنطرح شعارات عصر فولتير والثورة الفرنسية ضد الدين فإننا أيضا – ولنفس السبب – سنطرح شعارات الماركسيين ، فكلها ردود أفعال عنيفة لا مضمون لها ، وسندخل إلى حلبة العلماء في عقل وأناة لنرى ماذا يقدمون من اعتراضات علمية ضد قضية الدين ، ولنرى هل بإمكاننا أن ندير حوارًا علميًا معهم ، أو على الأقل نستنجد بعلماء آخرين – كمحامين – يردون دعاواهم .

فمن ناحية المنهج : هل يختلف منهج البحث في الدين عن منهج البحث في العلم ؟

إننا إذا نظرنا إلى الشروط المطلوب توافرها في الباحث هنا وهناك ، من حيدة وعدل ، ونزاهة وموضوعية لوجدناها واحدة ..

فهل ثمة خلاف في أساليب البحث نفسها ؟

وإن تنظيم الأفكار والتمهيد لها ببعض الفروض ، ثم اختبار هذه الفروض ، واستخلاص الظواهر العامة منها في ظل شمولية ، ودقة ، واستقراء كامل ، إنما هي معالم التنظيم المنهجين معًا ، منهج البحث في مجال العلوم الدينية ومنهج

البحث في مجال العلوم الدنيوية «الطبيعية».

إن الخلاف يأتي من تصور أمرين :

تصور أن مجال البحث - أي موضوع البحث - مختلف ، فموضوع البحث الديني ، هو « الميتافيزيقيا » وموضوع البحث العلمي هو « الفيزيقيا » وبالتالي فإن أهدافهما مختلفة وطرائق بحثهما مختلفة .

والحقيقة أن كان من الأولى - عند هذه النقطة - أن يكون اختلاف مجال الدين ومجال العلم نقطة التقاء ، إذ أنه لا تعارض بينهما ، بل هما يتكاملان ويسد كل منهما فراغًا لا يسده الآخر.

والتصور الثاني الذي انبنى عليه تصور التناقص بين الدين والعلم أن طريقة البحث بينهما مختلفة تبعًا لاختلاف موضوع البحث ، فما دام العلم يبحث في هذا العالم فإنه يبدأ من الحواس ، ويعتمد على المعامل والمختبرات ، ويستعين بالوسائل السمعية والبصرية ، أما الدين فمجاله اللا منظور ، ووسائله كلها افتراضية وتجريدية وعقلية ، وبالتالي فلا لقاء بينه وبين العلم ، لا في موضوع البحث ولا في منهج البحث.

وفيما يتعلق بالتصور الأول فالحقيقة أن موضوع البحث الديني ليس ما وراء الطبيعة وحسب بل إن الإنسان والكون المادي الذي هو موضوع نظر العلم ، كلاهما من مجالات البحث الديني أيضًا [١] ..

فاختلاف مجال البحث بين العلم والدين أمر مشكوك فيه ، ليس فقط من جهة ما ذكرناه من أن الدين يمد النظر والرؤية إلى سائر الكون بما فيه الإنسان ويحث المؤمن على البحث في آفاق الأرض والنفس حتى يتبين له الحق.. بل إن صور القرآن تتوالى حاملة أسماءها وكأنها تعرض شاشة الكون كله لتكون مجالًا للبحث ،.. انظر أسماء هذه الصور : «الرعد – النور – الدخان – النجم – القمر – المعارج – التكوير – الانفطار – الفجر – الليل – الضحى – الزلزلة»... وغيرها مما يمت بصلة إلى مظاهر الكون وآفاقه المختلفة.

لكن مجال البحث بين العلم والدين متفق من جهة أخرى ، هي أن موضوع العلم قد امتد إلى ما وراء الطبيعة ، وقد أصبح بإمكان العلم تناول ظاهرة أولية « حدوث العالم » وليس أزليته ، بالإضافة إلى نهايته ، وذلك في ظل كشف « القانون

---

(١) عبد المنعم خلاف، المادة الإسلامية وأبعادها ص ١٩، طبع القاهرة.

الثاني للحرارة الديناميكية » والذي يصف لنا انتقال الحرارة دائما من « وجود حراري » إلى « عدم حراري » وإن العكس غير ممكن مما يجعل كفاءة عمل الكون تقل يومًا بعد يوم ، ولا بد من يوم تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات وحينذاك لا تبقى أى طاقة مفيدة للحياة والعمل ، ويترتب على ذلك أن تنتهي العملية الكيميائية والطبيعية [1] وتنهي تلقائيًا الحياة ، نفسها.

لقد أصبح موضوع البحث متقاربًا جدًّا إذا بين موضوعي العلم والدين ، وقد أعجبني في بيان هذا الأمر عنوان الفيلسوف الذي لم يستطع أن يصل إلى شاطئ الحقيقة على الرغم من توافر كل الوسائل لديه ، أعني « برتراند رسل » ، فقد وضع عنوانًا لفصل من فصول أحد كتبه أسماه « الميتافيزيقا العلمية » . وفي هذا الفصل يسجل على الرغم منه – ذوبان تلك الحدود الفاصلة بين موضوعي العلم والدين ، وهو يأسف لأن رجل الشارع ما كاد يؤمن بالعلم حتى بات رجل المعمل يفقد إيمانه به ، بحيث أن الفلسفة الجديدة لعلم الطبيعة فلسفة متواضعة متلعثمة ، بينما الفلسفة السابقة متكبرة متغطرسة [2] ، ولا يملك

---

(١) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص ٧٤.

(٢) برتراندراسل :النظرة العلمية ص٧٤.

« راسل » إلا أن يعترف أمام القانون الثاني للحرارة الديناميكية – بأن الكون الآن يعتبر متناهيًا ، ويتكون من عدد محدد من الالكترونات والبروتونات ، وإن له بالتالي بداية كان عندها منظمًا تنظيمًا كاملًا ، ثم بدأ يفقد أجزاء من كماله في اتجاه الفناء [١].

كما أن راسل ومن خلفه علماء الطبيعة جميعًا ، يعترفون بأن منهج علم الطبيعة قد تغير في الأعوام الأخيرة ، حيث لم تعد – المادة – تتركب من قطع صلبة صغيرة وقد عاد بالتالي إلى نفس الفكرة التي كان ينادي بها جيل الفلاسفة من أمثال: بركلي – وهيوم .. وليبنتز.. وكانت ، وهيجل .

ويدلك بعض رجال التاريخ على تقارب وحدة الموضوع بين الدين والعلم حين يرون أن الفلسفة – التجريبية – للقرن السابع عشر ، إنما نشأت في جو نظام فلسفي يتصل بما وراء الطبيعة ، وأنه لولا هذا النظام لما وراء الطبيعة لما كان هناك تجريب ، ولا كان علم.

إن التشابك قائم بالتأكيد بين «الموضوع» الذي يدرسه الدين والعلم ، وليس هناك ما يحول دون أن تتجه اهتمامات هذا إلى

---

(١) نفس المرجع السابق،ص ١٠٨ .

ناحية أكثر من اهتمامات ذاك. كما أنه من المعقول أيضًا أن تختلف الأهداف المباشرة لكل من العاملين في الحقلين ، وإن كان من المؤكد أن الأهداف الكبرى والنهائية واحدة.

أما المشكلة الكبرى – في تصور بعضهم – فهي أن وسائل العلم في إثبات حقائقه واختيارها مختلفة عن وسائل الدين.

وقد يكون هذا صحيحًا بالنسبة لقضية واحدة يستقل بها الدين ، ولا يقحم فيه العلم نفسه ، وهى قضية اهتمام الدين بالكشف عن سر الكون كله والتعرف إلى خالقه ، والتعامل معه معاملة تليق به من وحي ما حدده في وحيه الديني.

والحقيقة أننا لم نفهم إلى الآن: لماذا ينزعج العلم من أن الدين يرتاد حقلاً... يرى العلم نفسه عاجزًا عن ارتياده؟!! ونحن ننزعج أكثر من بعض من يتسمون بعلماء ، ويرفضون كل مقولات الدين ، مع أنهم لم يرتادوا منطقته كما ينبغي ، وبالتالي نراهم يحكمن على مالم يبحثوا أو يعرفوا.

والقضية واضحة تمامًا ولا تحتاج إلى أي لبس: فإن ما وصل إليه العلم من اكتشافات سواء في عالم الكون أو الإنسان – إنما هو شيء خص بالعلم ، ولا ينفي ما يقول به الدين ، ذلك لأن العلم – احترامًا منه لطاقاته المحدودة – لم يفسر لنا قضايا ما وراء الطبيعة وكل القوانين التي اكتشفها العلم تفسيرًا لحركة

الأشياء لا تنفي ما يقول به الدين ، ففهمنا «لكتالوج» أي ماكينة ، ولأسلوب عملها وتركيبها – وهو الدور الذي يقوم به العلم – لا علاقة له بما يقول به الدين من أن هناك صانعًا صنع هذه الماكينة ، ووضع لها هذا القانون الذي تنتظم حركتها به.

وسواء اكتشف لنا نيوتن نظرية «الجاذبية» أو البرت أنيشتاين نظرية «النسبية» التي ابتلعت نظرية الجاذبية في أحشائها ، أو اكتشف «لامارك» و«دارون» نظرية «النشوء والارتقاء» ، التي قال بصور منها العالم العربي ابن ماسكويه ، عندما ذهب إلى أن الموجودات مراتب ، وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبسلطة ، ثم لا يزال يترقى ويتعقد [1] ، سواء صح هذا أو ذاك ، فهل ينفي هذا قول الدين : إن للعالم صانعًا مثلما لكل شيء صانع ، وإن هذا الصانع – أمام عظمة ما أبدعه – هو عظيم قدير محيط يستحق التبجيل والطاعة.

هل ينفي وجود مصنع عظيم مبني على أسس علمية عظيمة أن وراء بنائه عقلًا عظيمًا ..؟؟ إن الطبيعة بكل قوانينها حقيقة من حقائق الكون ، وليست تفسيرًا له ، وما يكتشف من قوانين ليس نفيًا للصانع ، بل هي – على أحسن احتمالاتها – إن صحت بصورة مطلقة – وهذا بعيد في منهج العلم – ليست إلا

---

(١) نديم الجسر : قصة الإيمان ص٦٤ طبع بيروت .

بيانًا لخلق الله: «إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع ، فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال» .

«ما هذا» وليس لديه إجابة عن السؤال «ولكن لماذا؟» ويوضح البروفسور «سيسل بايس هامان» – وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا – هذه الحقيقة في شرحه لقضية صيرورة الغذاء جزءًا من البدن عن طريق العناصر الكمياوية لتصبح تفاعلًا مفيداً.

فيقول : لو أنك سألت أي طبيب : ما السبب وراء احمرار الدم لأجاب:

– لأن في هذه الخلايا مادة تسمى«الهيموجلوبين» وهي مادة تحدثها الحياة حين تختلط بالأكسوجين في القلب.. حسنًا ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل «الهيموجلوبين»؟ .. إنها تصنع في الكبد – عجيب ، ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطًا كليًّا وتسير نحو أداء ، واجبها المطلوب بهذه الدقة البالغة؟

– هذا ما نسميه بقانون الطبيعة – ولكن ما المراد بقانون الطبيعة يا سيدي الطبيب؟

- المراد بهذا القانون هو : الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبييعة والكمياوية..؟

ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائمًا إلى نتيجة معلومة؟؟ وكيف ينتظم نشاطها حين تطير الطيور في الهواء ويعيش السمك في الماء ، ويوجد الإنسان على سطح الأرض بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة (١) .

إن هذا ما لا يجيب عليه العلم . إنه يترك الإجابة للدين.. وإذا كنا نعتقد أن العلم قادر على استكناه الإجابة – فالعقل بالتالي يمكن أن يلتقي مع الوحي.

ويقول ابن طفيل في ذلك على لسان بسكال في قصة – حي بن يقظان – ويلتقي معه الفارابي وابن سينا في قوله الذي يذكر مايلي:

«إن العقل يستطيع بما لديه من الأفكار الفطرية الأولى أن يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادئ الأولى ويدرك منها وجود إله ، وأما ما وراء ذلك من أسرار الوجود والخلق والخالق المحجوبة عنا بحجب الغيب فهو أعجز من أن يدرك كنهها وأحقيتها ؛ لأن الحواس لا تدرك غايات الأشياء .. ونحن نرى

---

(١) وحيد الدين خان :الإسلام يتحدى ص٤١

أن العقل قادر على إدراك القوانين واستنباط الكليات والوعي بالعلل – لو أنه تحرر من ضغوط المكابرة والعناد الإلحادي . «وما لا يستطيعه هو : التفاصيل والجزئيات التي يأتي بها الدين» وتعتبر حقائق من الدرجة الثانية ، ومن المفروض أن تقبل تبعًا للحقائق الكبرى ، لارتباطها العضوي بها.

كما أن العقل – أيضًا – وإن كان قادرًا على إدراك وجود الله ، فهو عاجز عن إدراك «كنه الله» ولا أعتقد أنه من البحث العلمي في شيء ، الإصرار على البحث في «كنه الله» لا لأنه «ليس كمثله شيء» ولا لأنه لا يدرك بالحواس وحسب بل لأنه لا يوجد عالم طبيعي يستطيع أن يعرف كل شيء عن حقيقة ذابابة واحدة وخواصها ، فضلًا عن أن يعرف «كنه ذات الله» وهل يرجو الإنسان الذي لا يعرف المادة ، ولا يعرف كيف يعرف ، ولا يدرك كيف يدرك ، أن يدرك حقيقة الله [١] .

إننا ندرك أن وسائل العلم هي الحواس والملاحظة والتجربة ، وأن وسائل الدين في إثبات حقائقه تتعدى هذه الوسائل المحدودة إلى استغلال طاقات إنسانية أخرى لكن هل يصلح اختلاف الوسائل في الوصول إلى الهدف مسوغًا لإحداث نزاع بين الدين والعلم؟

---

(١) نديم الجسر: قصة الإيمان ص ٢٠٥، ١٣١

ومع ذلك فنحن نزعم أن العلم - أيضًا - لم يكتف بالوسائل الحسية والتجريبية ، وأن كثيرًا من أساليبه هي أساليب غيبية وافتراضية واستباطية أيضًا مثلما الحال في منهج البحث الديني.

وعندما نتناول «الفيزياء» - مثلا - فإننا نجد أن مفاهيمها الأولية قد استوجبت من واقع الخبرة ، وفي حقيقة الأمر يبدو قولنا إنها «استوحيت» أقل من أن يعبر الواقع ، ولم يكن يقصد في الأصل بمصطلحات «الفيزياء» سوى تقديم أسماء افتراضية لصفات معينة مما يلاحظ في العالم الخارجي.. وعلى سبيل المثال فإن «نيوتن» في استخالصه لمفهوم الكتلة قد رأى أنه أبرز شيئًا موضوعيًا حقيقيًا موجودًا في العالم الخارجي وأعطاه تسميته ، وقد اعتبرت خواص المادة الأخرى مثل الحجم والشكل والوضع والسرعة موجودات موضوعية محددة وأنها مجرد رموز ذاتية لحقائق غير منظورة ، أما فكرة «القوة» فقد كانت أشد غموضًا ، ولقد اعتبرت كيانًا نصف وهمي وأكثر تجريدًا من المفاهيم القريبة مثل الكتلة والسرعة ، وما إليها ، ولا يقل عنها غموضًا فكرة الطاقة الكامنة التي يكتسبها الحجر عن الحركة أثناء سقوطه - إنها قوة من الصعب اكتشافها إلا عندما تتحول إلى شكل آخر من أشكال الطاقة.

إن جارودي يشكو - عندما كان يساريًا - من سيطرة

المفاهيم «الغيبية» على علم الطبيعة ويقول: لا نستطيع أن ندرك بوضوح مفهوم الحركة إلا بطرد أشباح القوى المزعومة – الميكانيكية ، الحرارية ، الكيميائية ، الكهربائية ، المغناطيسية ، البيولوجية – فكل قوة من هذه القوى المزعومة ليست سوى حثالة لنزعة الغيبية (١) .

ونحن لا ندري كيف يمكن طرد هذه الأشباح دون أن نسقط بناء علم الطبيعة الحديث .. وبتعبيره آخر هل يمكن أن يرفض العلم «الغيب» ويسقطه من حسابه كما يطالب جارودي؟

لقد أجبنا عن ذلك في حديثنا السابق حين تحدثنا عن المفاهيم الغيبية العامة التي يعتمد عليها العلم في بناء هياكل قوانيه ، ومع ذلك فنحن نزيد الأمر إيضاحًا ونتساءل هل بمقدور العلم أن يخضع كل الظواهر الطبيعية لأساليبه القاصرة؟ هل يستطيع أن يخضع الذبذبات الصوتية الضئيلة والأشعة ما فوق البنفسجية والضوء الالكتروني لأجهزته..؟

وحتى إذا تمكن من إخضاع هذه فثمة عشرات من الظواهر ستنكشف له ولا يستطيع إخضاعها.. وسيظل العالم غارقًا في الغيبيات إلى آخر المدى .. إنه يستخدم الكهرباء والإلكترون والطاقة والأجهزة الإلكترونية والموجة اللا سلكية ، ولا يعرف

(١) المادية بين الأزلية والحدوث ص ٥٠ طبع القاهرة (محمد حسن ياسين).

كنه هذه الطاقة كلها [١] إنه فقط يعرف العلاقات والكميات والقواينن ، ولكن يجهل ما هية أي شيء..!!

- أجل .. ما هية أي شيء.!!

لقد سقطت كل حجج اللا دينيين والماديين ضد الدين موضوعًا ومنهج بحث ، ولقد ظهر التقارب والتكامل واضحًا بين الدين والعلم في المجالين فلم يبق إلا أن نقول: إن من الضروري أن لا تكون المادة وعلاقتنا بها شيئًا تافهًا لا يستحق الوقوف عنده بالفكر طويلًا ، كما لا ينبغي أن تكون هي الأمر الوحيد الذي نقف عنده غافلين عما وراءه من قيم ومثل يدركها العقل [٢] إن الماديات هي أبجديات ومفردات وكلمات تنشأ عنها تجاربنا الحسية فنعرف الحقائق العلمية التي لولاها ما أدركنا شيئًا من الحقائق الروحية والقيم العليا التي وراء المادة ، إنهما معا - الماديات والحقائق العقلية العليا - هما طريق المعرفة الإنسانية الصحيحة.

* * *

(١) مصطفى محمود : لغز الحياة: ص ٩٥.

(٢) خلاف : المادية الإسلامية ص ٦٠.

أصل المشكلة بين الدين والعلم:

- بصرف النظر عن أن أصل المشكلة قد يتركز في بعض الرجال في كلا الحقلين، هؤلاء الذين يفرضون إرادتهم الحديدية على حركة المصدرين العظيمين للحياة الإنسانية خضوعًا لاعتبارات شخصية، أو لضيق أفق .. بصرف النظر عن هذا، فإن التاريخ يدلنا على أن الرحلة من فيثاغورث إلى كوبرنيكوس إلى جاليليو رحلة مليئة بالأسى والحسرة، بسبب خوف كنيسة العصور الوسطى على نفوذها وادعائها أنها وحدها مصدر العلم، مُغْلِقَةً كل منافذ العقل - هذه حقيقة تاريخية معروفة.

- لكن المشكلة مع ذلك عند بعضهم ليست في رجال الدين وحدهم، فالبحث العلمي المحايد يثبت أن للمشكلة جانبين آخرين: جانبًا في الكتب المقدسة، فلم يعد مقبولًا أن تظل القيمة الدينية التاريخية للنصوص المنسوبة إلى الله اليوم بمعزل عن الدراسة التاريخية النقدية والعلمية لكي نثبت ما صدر عن الله، وننْفي ما أضيف من البشر، وذلك يوجب دراسة الظروف التاريخية والعامة التي سادت تحرير تلك النصوص، ولا سيما بعد أن أصبح نقد النصوص علمًا، فقد كان له الفضل في جعلنا نكتشف مشاكل خطيرة، من متناقضات وأمور

بعيدة عن التصديق ، وكلها تظل باقية بلا حلّ ، وإننا لنأسف مع « موريس بوكاى » لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافًا لكل منطق.. إن ذلك – بحق – موقف يسيء كثيرًا إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة [(١)] .

لكننا هنا يجب أن نسارع فنحذِّر من العجلة في الحكم على النصوص.. فالتطور العلمي سريع ومتغير ، وبالتالي فلا يعتمد من حقائق العلم إلا ما ثبت بشكل نهائي ، لكن عندما نعرف أن أسفار العهد القديم قد كتبت على مدى تسعة قرون ، وأنها قد صححت وأكملت أكثريتها بسبب أحداث حدثت ، وضرورات خاصة ، فإن لنا أن نخضع هذه الأسفار لمنهج نقدي تاريخي وعلمي يوثق نسبة نصوصها إلى الله ، وينفي الإضافات الأدبية التي اتصلت بالنص الديني..

وقد أَحْسَنَ المجمع المسكوني الفاتيكاني الذي أصدر وثيقته بعد ثلاثة سنوات من المناقشة (٦٢-١٩٦٥) حول أسفار العهد القديم (التوراة) فقال: « بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق

---

(١) موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص١٠ طبع مصر.

على الخلاص الذي وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهد القديم للكلّ بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان.. غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان..

ويتحدث عن هذا الأمل الأب (كانيجس) الأستاذ بالمعهد الكلاثوليكي بباريس ، فيقول : (يكاد شعب المؤمنين ألا يعرف بهذه الثورة التي حدثت في مناهج تفسير التوراة.. إن هذه الثورة تفتح الطريق بشكل يقل أو يكثر لانقلاب في أرسخ رؤى تقليد الوعظ والإرشاد الكنسيين .. إنه لم يعد واجبًا الأخذ بحرفية الأحاديث الواردة عن المسيح في الأناجيل فهي كتابات ظرفية أو خصامية)[1] .

- أما من ناحية ما تتضمنه أسفار التوراة والأناجيل من إشارات علمية فالذي يبدو لي أنها إشارات قليلة جدًا وعامة ، وأكثرها يتعلق بقضايا خلق الكون وأصله ، ومراحل تكوينه ، مما هو بعيد عن منطقة التحقيق العلمي ، وكل ما ورد من معلومات يمكن أن يقوم عل أساس مدى سلامتها من التناقض الداخلي ، ومدى مطابقتها للمنطق والعقل ، وما ثبت من معلومات تاريخية مؤكدة..

وعلى العكس من ذلك فإن القرآن تضمن إشارات علمية

(١) المرجع السابق: ص٦٠، ٦٨.

كثيرة بعضها لم يكن بإمكان القرون السابقة – قبل القرن العشرين – أن تفسره وتعرفه وبعضها تنبؤات علمية تحققت ، وبعضها أصبح في حكم القانون العلمي كآية : ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ (١) .

ونحن لا نميل إلى التسرع في التفسيرات الجزئية العلمية للآيات القرآنية على النحو الذي ذهب إليه بعض المعاصرين ، إلا أننا نعتقد أن المنهج الذي التزم به الأستاذ «نديم الجسر» في كتابه (قصة الإيمان) ومنهج وحيد الدين خان في كتابه (الإسلام يتحدى) هو المنهج المقبول ، لأنه المنهج الذي يبرز القوانين الطبيعية التي توشك أن تستقر قواعدها.

* * *

– أما الجانب الآخر من القضية ، ففي رأينا ورأى من نعرف من الدارسين المحايدين ، أن النص القرآني هو النص الوحيد الصادر عن الله بألفاظه ومعانيه ، والمحفوظ في الصدور ، والمكتوب أيضًا والمسجل – كما هو الآن – قبل وفاة النبي محمد المسؤول عن تبليغ النص الإلهي بأمانة كاملة ، ثم دُوِّن في حدود العامين التاليين لوفاة النبي ﷺ ، وكان المسلمون جميعًا يتعبدون بتلاوته في الصلاة ، وخلال العام وبخاصة في رمضان ،

---

(١) النازعات: ٣٠.

وهم جمع يستحيل تواطؤهم على تغيير النص أو التلاعب به ، والجيل الذي تلقاه عن الرسول ﷺ هو الجيل الذي نقله إلى الأجيال التالية نصًا واحدًا برواية واحدة ولفظ واحد ، في ظل الإيمان الذي يؤمن به المسلم العادي جدًا من أي تغيير في كلمة قرآنية يعتبر كفرًا صراحًا وخروجًا عن الإسلام ، وبالتالي فقد توافر للنص القرآني من الصحة ما جعل «مريس بوكاى» في دراسته المقارنة للكتب المقدسة يقول : «إن صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد[١]» .

وأيًا كان الأمر فإن مشكلة الكتب المقدسة تمثل مشكلة يلزم دراستها دراسة علمية تاريخية وفق منهج النقد التاريخي ، فضلًا عن ضرورة عرض الحقائق العلمية الواردة في الكتب المقدسة على محك العقل والمنطق ، وما يثبت نهائيًا من قوانين العلم ، وهذه إحدى جوانب مشكلة النزاع بين الدين والعلم.

* * *

أما الجانب الآخر للمشكلة ، فهو رجال العلم الذين ينطلق

(١) المرجع السابق : ١٥١.

بعضهم من تصورات ثابتة ، وكأنها دين يدينون به ، ولا يجيدون عنه بدلًا ، والحق أن برتراند رسل وهكسلي من أبرز النماذج على ذلك ، إذ على الرغم من وضوح الحقائق العلمية يصرون على صرف النظر عن قضايا أساسية أهمها : غائية الكون ، وتناسقه ، والقضايا الماورائية ، ويرفضون المعطيات الدينية للقوانين العلمية المكتشفة ، على أمل اكتشاف قوانين مضادة لأنهم – ابتداءً – لا يريدون الاعتراف بمبدأ خالق الكون مهما تكن الأدلة قوية وواضحة..

- إن هؤلاء – أيضًا – وخلْفهم كل الأيديولوجيين والعلمانيين اللائكيين والماركسيين – يصّرون على فرض المذهب على المنهج ، والتفسير الواحدي على الواقعة ، وقد يخترعون مائة حلٍ خيالي لكل مشكلة .. إلا أن يكون الحلُّ صادرًا عن الدين.!!

- إن هذا أيضًا موقف لا علمي ، وهو بحّد ذاته مشكلة..!

* * *

لوحة الكون : تناسق وعقل :

سواء شئنا أم أبينا فإن العالم من حولنا مجموعة هائلة من التعميم والإبداع والتنظيم ، ورغم استقلال بعضها عن بعض

فإنها متشابكة متداخلة وكل منها أكثر تعقيدًا في كل ذرة من ذرات تركيبها من المخ الإلكتروني [١] .

إن ما يحدث في عالم النبات من تلقيح بين ذكورة وأنوثة بعيدة ، ومن علاقات توافقية اضطرارية أحيانًا ، ومن هرمونات تقوم بأداء وظائف مختلفة ، ليدلنا على أن عالم النبات يخضع لتفاعلات دقيقة وحركة منظمة وقوانين ثابتة.

إن جميع النباتات والحيوانات لم تخلق لكي تعيش في بيئة ثابتة محددة الأوصاف ، بل إن لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على مسايرة الأجواء والظروف الأخرى في حالة الاضطرار – فمن الذي زوّدها بأدوات القدرة على التكيف؟!!

– ومنذ أكثر من مائة وعشرين سنة رتب العالم الروسي (مانداليف) العناصر الكيمياوية تبعًا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبًا دوريًا ، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد الصدفة ، وقد تنبأ العلماء بفضل هذا الترتيب بوجود عناصر لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد.؟!

– وهذا الإنسان الذي لا يعدو في البداية أن يكون بيضةً مثل بيضة الدجاجة ، قطرها يتراوح بين جزء وجزأين من ٢٤٠

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم : مقال هاتاواى عن المبدع الأعظم.

جزءًا من القيراط ، ووزنها جزء من مليون جزء من الجرام وهى تتلاقح مع حيوان منوي ذكر صغير جدًّا بالنسبة إليها ؛ لأن طوله عبارة عن (٦٠ جزءًا من ألف جزء من الملليمتر) وهو يتمتع بذكاء يسمح له أن يعبر إليها طريق الرحم الشاق ، ويكون لنفسه رأسًا مكورًا يستطيع به أن يخرق جدار البيضة الهائل بالنسبة إليه ويصنع (!!) نهرًا من الماء يسبح فيه ، مستخدمًا حركة لولبية تساعده على اللحاق بالبويضة في الوقت المناسب ، وصانعًا بعنقه ذيلًا يساعده على السباحة في بحر الرحم ، وربط هذا الذيل ربطًا دقيقًا بأنشوطة يستطيع أن ينفك منها ، إذا دخل إلى البويضة.

وعندما يلتقي بأنثاه يجدها قد أعدت له حفلة استقبال شخصية ، وطردت شر طردة مائتى مليون من الحيوانات المنافسة كانت تسعى إليها ، وفتحت له إلى قلبها بابًا خاصًا يسمى باب الجاذبية ، فإذا دخل أغلق الباب وعاشا معًا في بيت الزوجية الذي يستعد كل شهر لاستقبال العروسين وإيوائهما وإطعامهما ، فتنتفخ خلايا غشائه المخاطي ، وتتّسع شعيراته الدموية ، وتنشط الغدد!!

وتمضي الرحلة المشتركة بين الزوجين في بيت الرحم المضياف

يتبادلان الهدايا الوراثية وعناصر التخطيط النووي (الكرموزمات) و(الجينات)[1] حتى يعبرا رحلة أخرى طويلة في اتحاد تام ، وكل يوم من أيام هذه الرحلة حافل بإعجاز خاص.

- فإذا خرجا إلى العالم كانا إنسانًا سويًّا آخر ، يحمل في حيازه الدماغي والجسمي من آيات الإعجاز الإلهي ما يكفي وحده أقوى دليل لوجود رحلة اتساق وانسجام ونظام دقيق يسيرها إله مبدع لهذا الكون ؟!! ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[2] .

- إن الكرة الأرضية - كجزء من الكون - تخضع لنسب مئوية معينة ، وقد قسمها العلماء إلى أقسام دائمة ، وحدَّدوا حجمها وسرعتها فيما يتعلق بمدارها حول الشمس ودورانها على محورها ، وإذا وقع أى خلل في حجمها أو سرعتها اختل نظامها كله[3].

- وتخضع كل الكواكب : عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والقمر ، لطبيعة خاصة ونظام خاص يحكم كلًّا منهما ، بحيث يبدو كل منهما وكأنه حبة في عقد ، وأضف إليها كل النجوم

(١) نديم الجسر : قصة الإيمان :٣٨١.
(٢) الذاريات: ٢١.
(٣) كريس مريسون: العلم يدعو إلى الإيمان ص ٥٤.

لتكتمل حبات العقد الجميل.

إن العناصر المبثوثة في الكون من نتروجين وأيدروجين وأوكسوجين وكربون وغيرها مبثوثة بحساب دقيق ونسب في غاية الدقة ، وإن أى خلل في نسب هذه العناصر كان من الممكن أن يشعل الكون بحريق لا تطفئه مياه المحيطات.

- وأي كون فسيح هذا؟

إن الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ ألف ميل ، وفي السنة يقطع ستة ملايين مليون ميل (سنة ضوئية). ويبعد القمر عن الأرض ، وهو أقرب الكواكب إليها ٢٤٠ ألف ميل تقريبًا. أما الشمس فتبعد ٣٣ مليون ميل تقريباً. أما النسر الطائر فيبعد عنّا بنحو ٣٠ سنة ضوئية ، والسماك الرامح يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى ٢٩٤ مليون ميل تقريباً.

ووراء هذا نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، ووراء مجرتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية [١].

وقد رأوا إلى الآن بآلاف التصوير نصف مليون سديم!!!

وصدق القرآن العظيم ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ

(١) نديم الجسر : قصة الإيمان: ٣٠٦.

لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[1] .

أجل : أيّ كون فسيح ومنتظم ومنسجم هذا؟!!

* * *

المستقبل للدين والعلم معًا :

- إذا قدر للبشرية أن يسيطر عليها العالم المادي وحده ، فإنها تكون قد أسلست قيادته لذلك «المسيخ الدجال» الأعور الأعرج الذي يقودها إلى المادية الطاغية التي تدمر نفسها بنفسها.

- إن العلم نفسه يحتاج إلى حراسة الدين كيلا يزهق روحه في مستنقع الحسّ والتجسيد ، محرومًا من نسمات التجريد الرحبة العالية.

- إن مفكرًا إسلاميًّا أوروبيًّا معاصرًا قد أعلن تشاؤمه من مستقبل العلاقة بين الدين والعلم ، وحذّرنا نحن المسلمين من التفاؤل الساذج بأن روح الحضارة الأوروبية المسيطرة ، تقترب من العلم ، وهو يرى أن العلم الحديث على ما هو عليه ليس ميالًا ولا مستعدًا لأن يقترب من الدين ، إن العلم قد يتطور إلى اللا أدرية الشمولية[2] ؟ لكن اقترابه من الدين غير متطور في

(١) الواقعة: ٧٥، ٧٦.

(٢) محمد أسد « ليوبولد فارسي » : الإسلام على مفترق الطرق ٦٣ بيروت.

المدى القريب!!

- وفي كلام هذا المفكر الأوروبي كبير حق ما دامت قافلة التنصير الكنسي قد تخلت عن دورها الفعلي في الحضارة الأوروبية ، وراحت تمشي مع الاستعمار ، تبحث لها عن موقع هنا أو هناك باسم التنصير في بلد إسلامي أو إفريقي ، متجاهلة أن خسارتها لأوروبا إنما تعدّ خسارة لقضيتها الأساسية ، بل إنه لمن المؤسف أن الكنيسة لا تقاوم الأديان الوثنية كالهندوسية والبوذية ، ولا الأديان الوضعية ، ولا تثير حملة عليها بقدر ما تبذل جهودها ضد الإسلام بالذات في آسيا الإسلامية وفي البلدان الإفريقية ، وهى بذلك تضيف إلى تخطيطاتها المنحرفة بعدًا آخر من أبعاد الخسارة ، حيث تعوق هذه البلاد عن محاربة اللا دينية ، وتفرض عليها الانصراف إلى مقاومة الأخطار الكنسية التي كثيرًا ما ترتبط بالدعم الأجنبي!!

- وأنه لمطلب عظيم حقًّا أن نناشد إخواننا المسيحيين في العالم كله ، بدءًا من الفاتيكان وانتهاء بالمسيحيين في الشرق ، أن يغيروا من تخطيطاتهم ، ويعيدوا النظر إلى خريطة العالم بفكر جديد يميز المواقع الدينية والمواقع اللا دينية ، وأن يتركوا المواقع الأخرى لعوامل الالتحام الفكري الهادئ الممتد.

- ومع ذلك ، فنحن متفائلون بالمستقبل ، نحلم بأن الكنيسة تغيّر استراتيجيتها ، بخاصة وأن الأخطار تحيط بها من كل جانب ، وإذا كسبت موقعًا ثانويًا خسرت مواقع أساسية في بلادها..

- اللهم إذا كانت الكنيسة ترضى بهذه المبادئ الدينية الشكلية السائدة في عالم اليوم ، والتي تسمح لبعض الكنائس بمباركة زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء!!

- لماذا لا نتفاءل وكثير من علماء الفيزياء والكمياء والحياة والجيولوجيا والنفس بدأوا يدخلون المعركة في صفّ الدين ، موجهين العلم إلى غاياته العليا ومحطمين بمنهج العلم كل استنتاجات الإلحاد الباطلة..!!

• وقد بدأت كتابات الإلحاد – على أساس العلم – تتعرض لكساد ، بينما أخذت في الرواج العالمي كتابات الإيمان على أساس العلم والعقل ، وقد أصبحت النزعة العلمية فيها أقوى منهجًا وأكثر أصالة.

• وقد بدأ تبادل الخدمات ووسائل المساعدة يتم برواج شديد بين الدين والعلم ، فكلاهما يأخذ من منهج الآخر ونتائجه ، وكلاهما يعطي.

• وقد بدأ هؤلاء العاملون في حقول الدين والعلم يظهرون تواضعًا كبيرًا فيما يتعلق بنتائج أبحاثهم ، ويبدون ميلًا للإفادة والفهم الموضوعي لما توصل إليه الآخرون.

• إن روح العلم في طريقتها وجوهرها لا تعادي الدين ، إنها روح عظيمة تستهدف إخضاع الظواهر للقوانين ، أي إلى النظام ، إلى الثبات في التعبير ، إلى الترتيب ، إلى المنطق ، إلى العقل إلى رؤية الأثر الواحد المتناسق الجميل.

• وإنه لأمر جدير بالالتفات أن ثمة قانونين أساسيين يكفيان في تفسير «الفيزيا» وهما الاحتفاظ بالدقة ، ومبدأ أقل فعل[1] ، فإذا كان العلم ينحو نحو الوحدة ، ويجدها ، فهل من التعسّف القول بأنه يتجه نحو الله الواحد؟!

* * *

(١) إميل بروتو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: ٢٠٦.



الاجتهاد وسيلة لعقل المسلم لفقه الدنيا والدين

- أسلافنا اجتهدوا في فقه الكون والحياة.
- اجتهاد العقل المسلم في فقه الدنيا واكتشاف وسائل تسخيرها - فرض كفاية على مجموع الأمة.
- ضرورة وجود تشريعات ربانية في عصور التعقيد والطغيان العقلي والمادي.
- منهج الاجتهاد في أمور الدين.

ذكرنا – وأكدنا – غير مرة ، أنه لا وحي بلا عقل ، ولا عقل بلا وحى ، وأن للوحى ثوابت ومقاصد وكليات وبعض التفصيلات الضرورية ، وللعقل مساحة واسعة من الفروع الفقهية ومن المعاملات ومن فقه الكون والنظم التنفيذية الضابطة لحياة الإنسان ، ومن تنسيق الحياة وتعميرها وِفْقَ الثوابت والضوابط الكلية التي شرعها الله!!

– وخلال مسيرة الإنسان قبل خمسة عشر قرنًا كانت حاجاته بدائية وبسيطة وكانت الأديان تأتي لترسم للإنسان العقيدة الصحيحة التي تصله بالله وتجعله يقدر الله حق قدره ويعبده حق عبادته ، كما كانت هذه الأديان أيضًا ترسم للإنسان الخطوط العامة الأخلاقية والنظمية التي تكفل له في حدود مجتمعه البسيطة الحياة الكريمة ، وما كان الناس عبر أكثر العصور في حاجة إلى علوم دقيقة تضع القوانين الضابطة لحركة التجارة في داخل الدول وخارجها ، وتضع القوانين لكل المجالات الاقتصادية والاجتماعية المركبة والمعقدة على النحو الذي يعرفه الناس اليوم..

– ولربما كانت (دار الندوة) في عهد (قصي بن كلاب) جدّ قريش تقوم بما تقوم به وزارة العدل(الآن) في محيط مكة المحدود.

- وكان (حلف الفضول) الذي تعاهد فيه أهل مكة على أن يُنْصفوا في عاصمتهم العالمية المقدسة كل من يفد إليها ويتعرض للظلم أو العدوان ، وربما كان هذا الحلف أقوى في تأثيره من منظمات حقوق الإنسان ، ومن قوافل الشرطة التي لا تكاد تنام إلا قليلاً!!

وإذا كان هذا جائزًا على مشارف ظهور الدعوة الإسلامية ، ورسولها محمد ﷺ فكيف كان الأمر قبل ذلك في عصر المسيح عليه السلام ، الذي كان يقول للناس - بكل ودّ وحبّ - قبل ظهور عصر «المافيا» و«البلطْجة» (!!) - كلامه الطيب الرائع : «من ضربك على خَدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن أخذ قميصك فأعطه رداءك»!!

- فلما جاء الإسلام ، كانت أمور الحياة في طريقها إلى التعقيد وكانت الحضارة على وشك أن تقفز قفزة نوعية ، وقد ساعدها الإسلام على ذلك كمًّا وكيفًا ، ولهذا انّسجم أن يأتي الإسلام بضوابط كثيرة في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى يمنع الإسلام الصراع بين الطبقات ، وبين العقول ، وبين الدول ، وبين المرأة والرجل ، والفرد والمجتمع ، والأب والابن ، والزوجة والزوج.

- ولم يَعُدْ ممكنا أن تترك ساحة الدنيا للعقل وحده ، يجتهد فيها دون حماية الوحي ، ويفهم «الحرية» - بالنسبة للدول أنْ تلتهم الدول القوية الدول الفقيرة والضعيفة بقوانين دولية ظالمة ، وتفهم «الحرية» - أيضا بالنسبة للمرأة - أن تفعل في جسدها ما تشاء ، بل أن يتزوج الرجل الرجل ، وأن تتزوج المرأة المرأة بعقود رسمية ، وتباركها الجهات الرسمية ، وتدافع عنها مؤسسات حقوق الإنسان. [ولا ندري أي إنسان حيواني هذا (!!)] ، وكما ضربت الشيوعية الأغنياء ، وسحقتهم باسم حقوق المجتمع وحريته كذلك سحقت الرأسمالية الفقراء باسم حقوق الأغنياء وحريتهم!!

* * *

الاجتهاد في فقه الدنيا :

- لقد جاء الإسلام بقوانين تمنع هذا الصدام الحضاري الذي يروّج له أقطاب النظام العالمي الجديد الآن ، زاعمين أنه حتمية لا بد منها ، وأن عليهم أن يسحقوا العالم الثالث والمسلمين بخاصة ؛ لأن هذا من سنن الحياة ، في رأيهم الكاذب الآثم المغلوط.

- وهذا المنحدر الذي يهوى إليه النظام العالمي المعاصر أكبر

الأدلة على عظمة الإسلام وحاجة البشرية إلى عدله المطلق ، وإلى مساواته العادلة بين كل الناس ، مهما اختلفت أديانهم وأجناسهم وأوطانهم.

- ولن يتحقق هذا في ظل الخمود والتخلف ، والكسل العقلي والتبعية الفكرية التي يعيشها أكثر المسلمين ، بل لا بدّ من أن يعمل (العقل المسلم) بأقصى طاقاته ، في ضوء ثوابته الإسلامية التي جاء بها الوحي الصحيح الكريم ، وهذا العمل الذي سيعمله العقل المسلم بأقصى طاقاته هو ما نسمّيه في الاصطلاح :«الاجتهاد»!! وقد يفهم بعضهم لأول وهلة الاجتهاد على أنه اجتهاد في التشريعات الفقهية لكي يتابع الفقه وقائع الحياة ، فيبصّر الناس بما هو حلال وما هو حرام ، لكن هذا – في الحقيقة – مجرد رافد واحد من روافد الاجتهاد ، فالأصل أن يعمل العقل المسلم في (فقه الكون) ، لأن الكون هو كتاب الله المنظور ، كما أن القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور ، وكلاهما يؤيد الآخر ويفسره.

* ونحن نعّد كل المبدعين في شتى العلوم النافعة التي يحلو لبعضهم أن يسميها العلوم الدنيوية – نعّد هؤلاء المبدعين مجتهدين ، لهم ثواب المجتهدين في العلوم الشرعية ، لأنهم يحققون الاجتهاد في الكون كتاب الله المنظور ويقدمون من حيث

أرادوا أو لم يريدوا خدمةً لتفسير كتاب الله المسطور وفقهه أحسن الفقه.

- بل نحن نرى من هذا أن الاجتهاد في عصرنا يجب أن يكون اجتهادًا يضم المبدعين في كثير من العلوم ، شرعية كانت أو فلكية أو طبيعية أو كيميائية أو طبّية أو هندسية.

- أنه لضروري أن يفتح الباب الاجتهاد للجميع في ضوء تكاملية المعرفة وتعقّدها ، وأيضا نرى ذلك ضرورة لإبقاء الناس في حظيرة الإيمان بالدين ، بعد أن وجدنا البشرية تنحدر في ظل الإبداع الأوروبي الذي انطلق بعيدًا عن الوحي والدين .. مؤمنًا بالعقل وحده والمادة وحدها.

- ويعُد الاجتهاد في العلوم الشرعية – في هذه الحالة – بمثابة الأرْضية التي تقف عليها الاجتهادات الأخرى ، وبمثابة الضمانات والضوابط التي تحمي الإبداع البشري من الانتحار والسقوط وتجعل منجزاته في خدمة الحياة والإنسان ومنهج الله.

وخلال القرون التي تلت ظهور الإسلام فهم المسلمون الاجتهاد بهذا المعنى الشمولي الوسع ، وانطلقوا ينشرون الدين والعلم معًا في أرجاء المعمورة ، ويجتهدون في فقه الكون والدنيا مؤمنين بأنهم يقومون بفرض شرعي يسمى فرض الكفاية ،

وبأنهم يحققون المعنى الحقيقي لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزاريات:٥٦] .

- لقد فتح القرآن المجال واسعًا أمام العقل العربي والمسلم كي يتزود بالعلوم والمعارف النافعة كلها ، وكان للآيات وللأحاديث النبوية التي تحضّ على العلم وتجعله عبادة متأرجحة بين فرض العين تارة ، وفرض الكفاية تارة أخرى ، ونافلة تارة ثالثة.. كان لهذه النصوص والأحكام أثرها في إقبال المسلمين على كل العلوم النافعة ، وأصبحت كل علوم المعاش الدنيوية علومًا للمعاد الأخروي ، كما أصبحت كل علوم العقيدة والشريعة والعبادات (علوم المعاد) علومًا تقود الدنيا وتزكيها وتحقق إنسانية الإنسان في إطار منهج الله القويم ، وأصبح الطب وعلوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم العملية والعقلية تدرّس في المساجد الكبرى جنبًا إلى جنب مع علوم العقيدة الشرعية ، بل أصبح العالم المسلم متفوقًا في التفسير والتاريخ والفلسفة والطب واللغة في آن واحد.

ولأول مرة في التاريخ يأتي دين سماوي ليعمق المكانة السامية للإنسان وللعقل البشري ، وفي الوقت نفسه يجعل الكون كله والحياة كلها موضوعات للبحث العلمي ، ومن حق

الإنسان بل من واجبه اكتشاف قوانينها وتسخيرها لنفعه ، وعبادة لله أيضا ، وبعد أن كان السائد في بقاع كثيرة من العالم الخضوع للظواهر الطبيعية والخوف منها ، بل وعبادتاه خضوعًا لهذا الخوف واتقاءً لشرها أو جلبا لنفعها ... جاء الإسلام يعلم المسلمين والإنسانية أنّ الإنسان هو الأقوى والأزكى ، وأن الكون كله بما فيه من قوى مرئية وغير مرئية مادة موضوعة للبحث تحت عقل الإنسان وليس – بالتالي – كونًا مخيفًا للإنسان ، بل هو خلقٌ من خلق الله وقد فضّل اللهُ الإنسان على كل المخلوقات واستخلفه في عمارة الأرض باسمه تعالى ، وقد أعطى القرآن – وهو كتاب الإسلام – مفاتيح علمية كثيرة تقود هدى الإنسان للبحث والاكتشاف ، وهي مفاتيح عامة وإجمالية تحرك العقل البشري ولا تكبله برؤية معينة تمنعه من البحث العلمي المحايد ، ولذلك فهي مفاتيح خالية من التفضيلات ، وتمثل قوانين كلية تزوِّد الباحثين في العلوم الكونية والاجتماعية بشارات ومعالم تدفعهم إلى الطريق الصحيح للبحث الهادف البنّاء.

ومما أورده صاحب المنار في المجلد الرابع عشر من مجلة المنار ، ما نقله عن الرحالة المسلم السيد محمود سالم في مقال له جاء فيه على لسان السيد سالم :

«قصدت في سياحاتي مدينة (بونتارليه) لمقابلة الدكتور «جدنييبة» المسلم الفرنساوي الشهير ، الذي كان في السابق عضوًا في مجلس النواب ، قابلته لأجل أن أسأله عن موضوع إسلامه» .

فقال: إنما تتبعت كل الآيات القرآنية ، التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، والتي درستها من صغري ، وأعلمها جيدًا ، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فأسلمت لأني تيقنت أن محمدا ﷺ ، أتى بالحق الصريح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون معلم ، أو مدرس من البشر ، ولو أن كل صاحب فن من الفنون ، أو علم من العلوم ، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً ، كما قارنتُ أنا .. لأسْلم بلا شك ، إن كان عاقلًا خاليًا من الأغراض» .

* * *

إن «الخوارزمي» هو إمام الرياضيات لقرون طويلة ، وهو مبتكر اللوغاريتمات وعلم الجبر .. أما «الكندي» فهو الذي كان الوسيلة لمعرفة حساب التكامل والتفاضل ، و«ثابت بن قرة» أدخل تعديلات جوهرية على فيثاغورث ، و«البتاني» أول من أوجد جداول فلكية دقيقة ، وبجهوده وجهود أبي الوفا

تطورت علوم الهندسة كالتفاضل والتكامل وحساب المثلثات.

- أما «ابن الهيثم» فهو إمام علم البصريات ، ويرى بعضهم أنه بدون ابن الهيثم كان صعبًا ظهور إبداعات التكنولوجيا الحديثة التي ساعدت في علوم الفضاء ، وكان مؤلفه المشهور (كتاب المناظر) كتابًا عالميًا بيقين في علوم الفلك وطبقات الجو.

وكان لابن سينا في العلوم الطبيعية والطب بخاصة مكانة لا تنكر ويُعَد كتاباه (الشفاء) و(القانون في الطب) من الكتب ذات التأثير الإنساني العام.

- ويقف ابن خلدون وحده رائدًا لعلمي الاجتماع (العمران) وفلسفة التاريخ ، وعلى الرغم من أنَّ عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨) مسبوق ببعض من اقتربوا من هذين المجالين في الحضارة الإسلامية مثل ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) وغيره - إلاّ أنه - أي ابن خلدون يقف وحده قمة سامقة ، يضعه رجل في قامة «أرنولد توينبي» في مصاف أرسطو وأفلاطون بل وسقراط ، ولا يجوز أن يقارن ابن خلدون في (رأى توينبي) بأي مستوى آخر...!!

* * *

لقد كانت الحضارة الإسلامية والعربية هي الحضارة العالمية

التي تسود العالم لنحو عشرة قرون ، وكانت أوربا توفد أبناءها ليتعلموا في الحواضر الإسلامية والعربية علوم الفلسفة والأدب والطبيعيات ، وقد كانت «قرطبة» – العاصمة الأندلسية – كما يصفها فيايب حتى – بحق (جوهرة العالم).. وحتى في الفاتيكان تتلمذ كثير منهم في الحواضر الأندلسية .. ويضاف إلى الحواضر الإسلامية الكبرى ذات الإشعاع العالمي مثل قرطبة وإشبيلية وبغداد ودمشق والقاهرة وبجاية والقيروان ولاهور – أن اللغة العربية كانت هى لغة العلوم واللغة العالمية لكل مثقفي العالم. وقد حققت انتشارًا عالميًا كاسحًا جعل الكاتب الأسباني (الفارو) يأسف أشدّ الأسف ويقول في رسالة له : «إنّ أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العرب فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها»...

ويقول كاتب أوربي آخر متحسرًا :«إن لغة العرب ما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعرًا يفوق شعر العرب أنفسهم بالأناقة وصحة الأداء[(١)].. وكان من نتيجة هذه الهيمنة للغة العربية أن انتشرت مصطلحات علمية عربية كثيرة في اللغات الأوروبية ، وهى مصطلحات

---

(١) عباس العقاد أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٧٠ ط٤ دار المعارف مصر .

كتبت فيها كتب كاملة ومن الصعب حصرها ، ومنها الكلمات الدالة على القطن أو الحرير الغزي MUSLIN أو على الحرير الموصلي Corde Cotton أو الجلد القرطبي Damas أو الحرير الدمشقي Gause أو المسك Jupe أو الجبة Morocco أو الجلد المراكشي Syrvan أو الشراب Saffron أو الزعفرانAttard أو العطر Musk أو الأرز Sofa أو الصفّة بمعنى المقعد الطويل Jarأو الجرة Up أو Lemon أو الليمون Orange أو البرتقال من التاريخ Rice السكر Sugar أو القهوة Coffee .

والمصطلحات التي بلغت في هذا العلم وحده عدة مئات من المفردات ذات الأصل العربي ، ومنها كلمات مثل الطرف Arnab,Arta ، والأرنب Caph ، والكف Cursa ، وكرسي الجوزاء ref والعرقوب Arkab ، والسمت Azimuth ، وآدص النعام Azha ، والبطين Botein ، وزبانتي العقوب Zuben Hakybi ، والوزن ، والسيف Saris ، والساهور Wega ، والنسر الواقع Wezn ، ورجل Sadalsud ، وسعد السعود Sadr ، وصدر الدجاجة Saif الجبار Rigel ، والذوق Zaurek ، وقرن الثور Tauri ، والراعي .. وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها Denob والذنب Errai كثير غير ما

ترجموه بالمعاني دون الألفاظ [1] .

* * *

- وكانت الترجمة من أكبر عوامل التفاعل الحضاري..

- ومن أشهر من قالوا بالترجمة من العربية إلى اللاتينية من العلماء الأسبان:

- جون (يوحنا) الإشبيلي حوالي ١١٥١ م ، وإبراهام بارهييا ١١٥٠م ، ومارك الطليطلي ١٢٠٠م ، ويهودا بن طبون ١١٨٠م ، واسطفن السرقسطي ١٢٣٠م ، وبينز كاليكو ١٢٣٠ وساليو البادوي ١٢٤٠م ، وابن حسداى ت ١٢٤٠م ، هو مائيل بن طبون حوالي ١٢٠٠م [2] .

ومن العلماء الإنجليز : «إيديلاداوف باث» (١١٤٢م) ، ودوبرت الجستري (١١٥٠م) وألفريد السارشيلي حوالي (١٢٠٠م) ، وروبرت الإنجليزي حوالي ١٢٧٠م.

ومن العلماء الإيطاليين: أرنولد الفيلانوفي حوالي (٢٦٠م) ، وجيوفاني كامبانوس حوالي (١٢٦٠م) ، ويوحنا البريسجي

---

(١) عباس العقاد أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص٦٠- ٦١.

(٢) انظر مايزر : يوجين، ترجمة كاظم سعد الدين . الفكر العربي والعالم الغربي ص ٩٥- ١١٤.

حـــوالي (١٢٦٣م) ، وأفلاطـــون التيفـــولي (١١٥٠ م) ، واصـــطفن الأنطـــاكي (١١٢٨م) ، ولـــيم اللونـــسي حـــوالي (١٢٣٠م) وفي الترجمـــة مـــن العربيـــة إلى الأســـبانية واللاتينيـــة والعربية إلى البرتغالية) [١].

ومن الأسبان والفرنسين من تخصصوا في الترجمة من العربيـة إلى العبرية ومن أشهرهم : سليمان بـن أيـوب ، وشـطوب بـن إسحاق ، وزراحيا كرشـيان ، وموسـى بـن طوبـون (١٢٤٠ – ١٢٨٣ فرنـسي) ويعقـوب بـن مـاهر بـن طبـون (فرنـسي) فالويبموس بـن ثـالو نيمـوس (فرنـسي) ، وصـموئيل يهـودا المارسيلي ، وتدرس التادرسـي (فرنـسي) وسـليمان بـن بـاطر (فشتالي) وإسحاق بن ناثان القطربي (أسباني).

ومن الإيطاليين قام ناثان هاميتي أيضا بالترجمة من العربية إلى العبرية والسمو آل ابن يعقوب الكابوي ، وسـليمان يونـابراك ، وسمو آل بن سليمان هاميتي [٢] ، وغيرهـم.

وقد بقي المسلمون يفتحون العالم بالدين والعلـم معًـا ، ومـا شعروا قطّ بأن هناك انفصالًا بين الجانبين ، كما أنـه لا انفـصال

---

(١) انظر مايزر : المرجع السابق ١١٤-١٢٥ .
(٢) مايرز : الفكر العربي والعالم الغربي ١١٤ – ١١٨ .

بين الروح والعقل والجسد.. وكان المسجد يعلم المسلمين علوم الدين والدنيا معًا ، وكان العالم المسلم يجمع بين الطب والفقه ، ويبرز في التفسير والتاريخ والفلسفة ، ويكتب موسوعات في تفسير القرآن وتاريخ الإسلام ومقارنة الأديان ، وقد يكون أديبا وشاعرًا وفيلسوفًا ، وهو في كل ذلك مؤمن بأن اجتهاده في أمور الدنيا واجب يدعم الاجتهاد في أمور الدين ، ويقويه ولا يناقضه!! فلما مضت عشرة قرون تقريبًا وهي مدة هيمنة الحضارة الإسلامية على العالم بدأ المسلمون ينامون وظهرت بينهم مفاهيم مغلوطة تدعوهم إلى ترك الدنيا والاكتفاء بها وترك علوم الدنيا للآخرين ، يسخرون الكون ، ويفلسفون الفكر ، وأصبحت كثير من العلوم التي قادت المسلمين إلى النهضة هي – بعينها – علومًا تقود إلى تبديد الطاقات وتطيل الملكات واجترار الخلافات فأصبح علم (العقيدة) الجميلة الصافية (علم كلام) تدور الحروب فيه بين فرق كل منها يزعم أنه الفرقة الإسلامية الناجية ، وأصبح (الفقه) ترفًا وتعصبًا للمذهبية ، وتعطيلًا للعقل والاجتهاد ، وفقد (تفسير القرآن) طعمه ، وأصبح معارك لغوية وصراعات مذهبية ، كل يحاول أن يلوي النصوص لينصر مذهبه ورأيه ، وغلبت الجزئية والفرعية

على العقل المسلم ، وفقدت الفلسفة مجالها الصحيح وهو مجال الكون والعلوم (الفيزيقا) واشتغلت (بالميتافيزيقا) والجدال حول صفات الله ، والمناطق الغيبية التي يجب أن تترك للوحي وحده لأنها فوق العقل ، بينما أهملت فلسفة علوم الكون والحياة والإنسان مع أنها الفلسفة المطلوبة ، بل بدونها لا يتقدم العلم ، إذ هي الوصول بالعلم إلى مرحلة الفرضيات والقوانين والتعميم.. فثمة – بالتالي – فلسفة للطبيعة ، وأخرى للطب ، وثالثة للاجتماع ، ورابعة للتاريخ ، وعن طريق الفلسفة الكونية والاجتماعية تقدمت أوربا ، وعن طريق الجزئية والحرفية والفرعية الذّرية تأخر العالم الإسلامي..

أما الفلسفة المرفوضة فهي التفلسف في ذات الله ، وهي منطقة سمعية لا يقوى العقل على التفلسف فيها... وهي لم تكن قد قط المجال الكبر عند فلاسفة الإسلام – بصفة عامة – بل إن أكثرهم دافع عن ذات الله بأدلة الاختراع والإبداع ، بل ونقض المناهج اليونانية أفلاطونية أو أرسطية!!

– صحيح أننا كنا نتمنى أن لا ينبهر بعض فلاسفة الإسلام بأرسطو وأفلاطون ، وأن ينطلقوا من (الفلسفة القرآنية) – ككتاب وحي صحيح وحيد – و«الفلسفة الكونية» كمجال

إبداع ونواميس إلهية مؤكدة لكتاب الوحي!!

- لكن منهج الإدانة بالجملة - كما يشيع بعض المسلمين اليوم للأشخاص وليس للأفكار، وبأسلوب التفكير والتأثيم، وليس بأسلوب النقد العلمي والمنهجي الهادئ - هو المنهج الذي نرفضه ونحاربه.. - ولم لا يكون لهؤلاء الفلاسفة بعض العُذر..؟!

- أليس من المحتمل أن يكون (المخطئ الأكبر) في هذه القضية هو الخليفة العباسيُّ (المأمون)، لأنه فتح باب ترجمة الفلسفات إلى العربية، ولم يقم بجهد مواز لفتح باب الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى لتقديم العقائد الإسلامية بطريقة إسلامية للبشرية المنكوبة بالفلسفة الإغريقية المركّبة تارة والساذجة تارة أخرى!!

- وقد وجد الفلاسفةُ المسلمون أنفسهم أمام واقع فرضه هذا الخطأ الذي ارتكبه الخليفة المأمون... ولم يكن أمامهم إلا أن يفهموا الخصم، وأن يترجموا فكره، ويشرّحوه ويحلّلوه، ويبيّنوا عواره، ويردّوا عليه، ويقدموا البديل الإسلامي بطريقة عقلية (فلسفية) ملائمة للمناهج الزاحفة..

- أجل هذه هى الحقيقة.. وهذا هو عذرهم وقد أصابوا

وأخطأوا.. لكن كما يصيب ويخطئ كل الباحثين والفلاسفة!!

- وليس في الأمر لا كفر ولا إثم.. بل هناك أجرٌ للمخطئ ، وأجران للمصيب ، ورفضٌ للفكرة الخاطئة ، وقبول للفكرة الصائبة ، حتى لو كانت الفكرة - عن غير عمد - توصل إلى الكفر.. فهي فكرة جاهلية كافرة.. أمَّا صاحبها فليس كافراً... وَحَسْبُ صاحبها أن يكون استغفر الله في أىّ يوم من أيام عُمره التالية أو نطق بالشهادتين!!

ومعظم المسلمين - فلاسفة وعامة - قد يتكلمون كُفْرًا عن غير وعي في كل يوم.. ثم تأتي الصلوات.. أو الاستغفار فيمسح الكفر.. ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1] .

فهكذا جمع القرآن بين الإيمان والشرك ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي ذرّ رضي الله عنه: « **إنك امرؤ فيك جاهلية** »[2] .. ولم يكن أبو ذر رضي الله عنه - في أي يوم كافراً!!

- ولماذا يتشبَّث هؤلاء بتكفير - أو تأثيم هؤلاء الفلاسفة ما دام في الأمر مندوحة لالتماس عذر ، أو التحقق من وجود

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) رواه البخارى في كتابى الإيمان والأدب.

نسبة إيمانية تمنع الكفر..؟

ولماذا لا ننظر ابتداء بعين التبرئة.. بدل الإصرار على التجريم.. تكفيرًا وتأثيماً..؟

* * *

لقد أُعْجِبْتُ – أشد الإعجاب بهذا المنحى الفكري الذي انتهجه الفقيه والداعية العظيم الشيخ (نديم الجسر – مفتي طرابلس – لبنان الأسبق رحمه الله) وهو يعالج من خلال كتابه العظيم (قصَّة الإيمان) رحلة العقل إلى الإيمان باللّه من خلال الفلسفة والعلم.. ثم القرآن..

وكيف تطابقت الفلسفة الحقة والعلم الصحيح مع كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل..

وكان الكتاب منقذًا لعقلي وضميري في مواجهة موجات الحقد التي تنهال على موكب المفكرين والفلاسفة المسلمين دون تقدير لظروفهم والتحديات التي واجهوها ، وأنا لا أقصد من ذلك أن نحابي على حساب الحقيقة الإسلامية وأن لا نصوب الخطأ بالحكمة والعلم والكلمة الرقيقة الودود.. حتى ولو كان اختلافنا مع هؤلاء الفلاسفة منهجيا فلا محاباة ولا خلاف في التصويب والحوار ، وإنما الخلاف في الأسلوب الجارح وفي

منهج التفكير والإدانة الكاملة التي تكشف عن حقد مسبق وكراهية عمياء!!

كان الشيخ الجسر – رحمه الله – طيلة كتابه يبحث عن زهور الإيمان ، فيعلي من قدرها ويشيع عطرها ويقتلع أشواك الكفر ويكشف انحرافها .. حتى لدى الفلاسفة غير المسلمين .. فقضية الإيمان قضية الإنسانية عامة!!

– أنصت إلى الشيخ الجسر ، وهو يدفع عن «الرازي» و«الفارابي» و «ابن سينا» تهمة.. ضعف الإيمان التي يتساءل عنها تلميذه ومحاوره «حيران بن الأضعف».

– إنَّ الشيخ ينفي التهمة.. ويجيب تلميذه ومحاوره قائلاً: «معاذ الله يا حيران ، إنهم من أعظم المؤمنين بالله ، ومن أصدقهم برهانًا على وجود الله ، وكيف لا يكونون كذلك ، وهم كغيرهم من فلاسفة المسلمين ، قد جمعوا إلى إيمان الوحي الصادق إيمان العقل السليم ، نورًا على نور ، ولكن هؤلاء أخذوا ببرهان الأفلاطونية الحديثة وخيالاتها في مراتب الخلق ووسائطه ، واختلط عليهم الأمر فحسبوها من كلام أي سطو وحال إجلالهم للمعلم الأول ، دون تمحيصها ، لذلك كان على من يكتب عن هؤلاء أن يمحص أقوالهم ويميز ما فيها من الحق النير ، والباطل المظلم ، وهذا ما لم يفعله الذين كتبوا

عنهم ، إما عجزًا عن التميز ، أو زهدًا في نصرة الإيمان ، أو كيدًا للإيمان»[١] .

ويتابع الرجل حديثه بشيء من التفصيل عن كل فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة.. إنه يقول عن الرازي:

«فالرازي من أصدق المؤمنين ، ولو لم يكن لدينا دليل على صدق إيمانه إلا قوله : إنّ وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدّرتها على إتقان الصنعة يدل على وجود خالق أحسن كل شيء خلقه» لكفانا[٢] .

- أما عن «الفارابي» فيتصل الشيخ الجسر الحديث عنه لتلميذه حيران .. قائلا:

«الفارابي» يا حيران ، من أعظم الفلاسفة المؤمنين ، وأصحّهم منطقًا ، وأصدقهم برهانًا على وجود الله ، فقد بدأ بالدفاع عن العقل . فأثبت له أحكامه الأولية البدهية ، التي تعتمد على البراهين كلها ، واتخذ ، من هذا ، طريقه إلى إثبات وجود اللّه ، وما زالت أقواله ، في المعرفة والوجود ، تتحكم في عقول العلماء والفلاسفة والمتكلمين ، إلى يومنا هذا الذي نحن

---

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٥٧،الطبعة الثالثة: منشورات المكتب الإسلامي لبنان.

(٢) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٥٨.

فيه [1].

- ويأتي الحديث عن (ابن سينا) مفصّلا أيضًا - بل أكثر تفصيلًا - لأن ابن سينا يلقى هجومًا أكثر من غيره..

- يقول الشيخ الجسر عنه لتلميذه حيران!

- «إن ابن سينا من أعظم الفلاسفة المؤمنين ، وهو أشبه الناس بأستاذه الفارابي ، واتزانا عند البحث في (المعرفة والوجود) ، وإسفافًا عند الكلام في مراتب الصدور ، والعقول ، والأفلاك» [2].

- والشيخ الجسر - كما نرى من النصّ السابق - مع إثباته أنَّ ابن سينا من أعظم الفلاسفة المسلمين - لم يجامل ابن سينا في أخطائه بل قدح فيما يستحق القدح.. وإن كان مع ذلك.. بَرَّأ ابن سينا من تهمة تبعيته لأرسطو تبعية عمياء كما يظن بعضهم...

فيقول! « إن ظاهر كلام ابن سينا يدلّ على أنه يُجاريه.. ولكنّي أفهم ، من باطن كلامه ، أنه يخرج عن كلام أرسطو ، ويفسّر معنى القدم تفسيرا بديعًا ، يدل على بُعد نظره ، وسلامة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٦٠.

تفكيره ، وصدق إيمانه »[1].

فمع إسفاف ابن سينا عند كلامه عن مراتب الصدور ، والعقول والأفلاك - إلا أنه اجتهد فأخطأ ، ولم يخرج عن دائرة صدق الإيمان!!

- وعن (ابن مسكويه) يقول الشيخ الجسر لتلميذه: « إن لابن مسكويه ، في فلسفة الأخلاق والمعرفة والوجود ، كلامًا لا يقل سموًا ، وبيانا عما جاء به أعظم الفلاسفة»[2] ويدافع عن بعض الشبه التي نسبت إلى فلسفة ابن مسكويه وآرائه فيقول :

«هذا ما أراني أفهمه من كلام ابن مسكويه ، وإني به لفرح وفخور ، لأنه يؤيد الرأى القاطع ، الذي أرشدت إليه ، ثم خبرته بنفسي ، بعد حياة طويلة وتأمل عميق ، وهو أنّ نتاج الفلسفة الصحيح لا يتنافى أبدًا مع الدين الحق ، في إثبات وجود الله ووحدانيته ، بل يؤيد هذا الإثبات الذي جاء به الوحى بالنظر العقلي الخالص[3] » .

- ويتابع الشيخ رحلتهُ الباحثة عن زهور الإيمان في حديقة الفلسفة الإسلامية.. فيفسر الخصومة المعروفة بين أبي حامد

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٦٢.
(٢) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٦٣.
(٣) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٦٥.

الغزالي وابن رشد حول تهافت الفلاسفة ، ويدافع عن ابن رشد أعظم دفاع ويصفه بأعظم النعوت ، يقول الشيخ الجسر لتلميذه: «إنها خصومة المؤمنين يا حيران» .

حيران – ماذا يريد مولاي خصومة المؤمنين؟

الشيخ – إن ابن رشد يتفق مع الغزالي في جميع أرائه عن الوجود والخلق والخالق.

– حيران – كيف ذلك وأنا أسمع أيضا أن ابن رشد ، هو عدوّ الغزالي وناقده ومخالفه في كل أرائه ، حتى أنه وضع في نقده كتابه المشهور (تهافت التهافت) وأسمع أيضًا أن ابن رشد كان من القائلين بقدم العالم ، وبإنكار الروح والعقل والشخصية الإنسانية ، ولهذا اتّهم بضعف الإيمان ، ونكب في هذا السبيل نكبة كبرى.

الشيخ – إنّ ابن رشد عالم من أعظم علماء الدين ، وفيلسوف مفكر من أصدق الفلاسفة المؤمنين ، فكن على يقين من هذا ، وإياك أن تأخذ أو تؤخذ بما اتّهمه به بعض رجال اللاهوت ، أو علماء الكلام ، أو بما أذيع عنه بين العامة من سوء القالة ، فكلّهم قد أخطأوا في فهم هذا المفكر العبقري المؤمن[١] .

---

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٩٢.

ويتابع الشيخ حديثه الودود العميق عن ابن رشد فيقول لتلميذه حيران :

- لو رجعت إلى أقوال ابن رشد في كتبه التي بين أيدينا لرأيت أنه لم ينكر البعث أبدًا ، بل آمن به وصدقه ، ووصف الذين ينكرونه (بالزنادقة) وإنما كان جداله مع الغزالي في صورة البعث وكيفيته ، فقال : إن النشأة الأخرى تكون بخلق جديد للجسم ، وهذا لا يخالف الدين في شيء ، أما النفس ، فقد صرح ابن رشد ، بعد الأخذ والرد مع الغزالي بغموض أمرها [١].

- ويأتي الحديث عن (أبي العلاء المعرّي) المتهم عند بعض النصارى والمسلمين ، فيقول الشيخ الجسر لتلميذه:

إنّ المعرّي قد شك في كل شيء .. إلا أمر واحد ، لم يتطرق إلى عقله الشك فيه أبدًا ، وهو وجود الله - تعالى - وإنْ قيل لك غير هذا فلا تصّدقه ، فلقد أظهر المعرّي حيرته في القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، وحكمة الخلق ، وحقيقة الروح ، وكيفية البعث ، ولكنه بقي معتصمًا بإيمانه بوجود الّله ، لأن عقله السليم دله ، بالبرهان ، على هذا اليقين الذي لا يمكن

---

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ص ١٠٥.

للعقول السليمة الإفلات منه[١].

وما يهمنا في حديث (الشيخ الجسر) - هو هذا المنهج الكريم المنصف الذي يحترم الحياد العلمي فينقد ويفنّد ويصوِّب لكن ذلك يتمّ دون قدح أو تجريم بالجملة أو دون إغضاء عن الإيجابيات أو تضخيم للسلبيات أو تعسّف في تأويل السلبيات بحيث تخرج بها عن دائرة الاجتهاد الخاطئ إلى دائرة الرمي بالكفر الحرام أو الاتهام بالخبث والكيد العمد للإسلام والتواطؤ مع خصومه وأعدائه من الزنادقة والملحدين..!!

ولم يكن الشيخ نديم الجسر - جزاه الله خيرًا - وحده الذي يسير على هذا المنهج الودود المنصف الذي يقدر للناس بشريتهم واجتهادهم ولا يتعامل معهم على أساس أنهم لا بد أن يكونوا ملائكة معصومين!!

- بل وجدنا آخرين يمشون على نفس الدرب في التقويم البشري المنصف للناس ، وعلى رأس هؤلاء سماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوى الذي أنصف جلال الدين الرومي ، والتمس له الأعذار ، وأنصف شاعر الإسلام محمد إقبال ، والإمام السرهندي أحد كبار المجاهدين في الهند ، والإمام

(١) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ص١١٣.

الشهيد عرفان الدين وغيرهم.

يقول الشيخ الندوى كبير علماء الهند عن جلال الدين الرومي المتهم عند بعضهم: «جاء الرومي حين كان العالم الإسلامي في حاجة إلى شخصية تنفخ بقلبها وعاطفتها القوية روحًا جديدة في المجتمع الذي طغى عليه العقل وساد عليه الخمول ، وقد كان شعره الذي يعرف (بالمثنوي العلوي) ثورة على علم الكلام الذي فقد جدَّته وقوته ، ونقد الفلسفة في اتجاهها ومنهجها وتجاوزها حدودها في تقدير الحواس وتقديس العقل.

وكان (جلال الدين) شديد الرياضة والمجاهدة كثير التعبد ، قال فيه أحد أصحابه الذين صاحبوه أعواما طوالًا وهو (سيد سالار): لم أره قط في لباس النوم ، ولم أر عنده فراشًا ولا وسادة ، فإذا غلبه النوم نام جالساً.

وكان يقول في أحد أبياته الشعرية: كيف ينام من يتقلب على حسك السعدان؟!

- وإذا حانت الصلاة توجه إلى القبلة وتغير لونه ، وكان كثير الاستغراق في الصلاة.

يقول «سيد سالار» : رأيته مرارًا دخل الصلاة في العشاء

وقضى الليل كله في ركعة.

– وعن أبي الحسن الأشعري – المتهم عند بعضهم كذلك يقول – الشيخ أبو الحسن الندوي – أطال الله عمره :

«اكتسب أبو الحسن ملكة قوية ومرانًا على البحث والاستدلال بحكم اشتغاله بالبحث في علم الكلام والدفاع عن المعتزلة وكان صاحب موهبة وقويمة شديدة العارضة قوى الحجة ، وقد أشعل إخلاصه للدين وانتقاله لمعسكر أهل السنة مواهبه ، وكان يرد على المعتزلة وحججهم في سهولة » .

– ويقول عن أبي منصور الماتريدي المتهم عند بعضهم :

إذا كان الأشعرى دائمًا في معارضة وأخذ وردّ مع المعتزلة مما أدخل في بحوثه غلوًا وزيادات ، فإن الماتريدي حذف هذه الزوائد التي كانت تحتاج إلى تكلف وتأويل وتناول علم الكلام بالتهذيب حتى أصبح أكثر توسطا واعتدالا وكان الخلاف بينه وبين الأشعرى جزئيًا محدودًا لا يزيد على أربعين مسألة.

أما الدكتور مصطفى الشكعة ، ففي كتابه العظيم: « معالم الحضارة الإسلامية » ينصف عددًا كبيرًا من الشخصيات الإسلامية ويرصد حسناتها التي تعمد الكثيرون إلى إغفالها وتجاهلها والتركيز فقط على بعض الأخطاء والسلبيات التي

وقعوا فيها بحكم بشريته... يقول الدكتور «الشكعة» عن الفيلسوف الفارابي:

إن أبي أصيبعة يُصنِّف الفارابي مع طبقة الأطباء المشهورين في الشام ، وهو مخطئ في ذلك فالفارابي يمثل طبقة واحدة على مساحة الفكر الإسلامي والأرض الإسلامية طولًا وعرضًا ، ولكنه يصدق كل الصدق حين يصور شخصية المفكر الفيلسوف الكبير فيقول عنه: كان رحمه الله فيلسوفًا كاملًا ، وإمامًا فاضلًا ، قد أتقن العلوم الحكيمة ، وبرع في العلوم الرياضية ، ذكي النفس ، قوي الذكاء ، متجنبًا عن الدنيا ، مقتنعا منها بما يقوم بها أوده ، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين ، وكانت له قوة في صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها ، ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها.

والحق أنه لم يفتتن مؤرخوا العقلية الإسلامية بعالم أو فيلسوف افتتانهم به ، فالقفطي يلقبه بفيلسوف المسلمين دون مدافع ، والبيهقي يلقبه بالمعلم الثاني ويقول: الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام هما أرسطو وأبقراط ، واثنان بعد الإسلام هما أبو نصر وأبو علي يقصد الفارابي وابن سينا ، وصاعد الأندلسي يلقبه بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وابن خلكان يلقبه

بأكبر فلاسفة المسلمين ، ويذكر أنه لم يكن فيهم من بلغ مرتبته في فنونه.

ويقول الدكتور الشكعة أيضا عن فلسفة أبي نصر الفارابي ومميزاتها:

هذا والصفة الإسلامية لا تتخلى عن فكر الفارابي ولا تنفصل عنه فيلسوفًا ، وهو يحذر تعاطي الفلسفة إلا لمن كانت له معرفة دينية وإيمان إسلامي عميق ومن لا تكون هذه حالته يكون عرضة للتيه والضلال.

ويتابع الدكتور الشكعة رؤيته الوضيئة فيقول عن أبي حيان التوحيدي:

اختلف المؤرخون في شأنه ، فمنهم من وصمه بالزيغ والإلحاد ، وفي مقدمة من رماه بذلك أبو علي الفارسي ، والذهبى وابن الجوزي ، وابن الجوزي أكثر تحاملًا عليه ، لأنه يقول « زنادقة الإسلام ثلاثة » : ابن الراوندي ، والتوحيدي ، وأبو العلاء المعري ، ثم يستطرد قائلا: وشرّهم التوحيدي ، لأنهما صرحا ولم يصرح!!

- أما ياقوت فيصف التوحيدي بأنه صوفي السّمت والهيئة يتعبّد ويتمسك والناس على ثقة من دينه ، وأما رميه بالزندقة

فأمر يصعب تصديقه ، وليس بين أيدينا من كتبه الكثيرة إلا ما يثبت عمق تدينه وتسبيحه لله بعبادات بلغت من الرصانة حدًا كبيراً.

* * *

- وأنا أتساءل: ماذا نستفيد عندما نكثر من أعداد الملاحدة والخبثاء في تاريخنا؟

- وماذا نستفيد عندما نحول فلاسفة الإسلام من مدافعين عن الإسلام ضد الغزو الإلحادي إلى جنود لهذا الغزو؟

- وكيف لنا أن نحكم على قلوب هؤلاء ونواياهم وأهدافهم... لمجرد أن بعضهم أخطأ في فهم بعض معالم المنهج الإسلامي ، أو في بعض طرائف الاستدلال؟!!

لقد سئل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن عقيدة الخوارج الذين يحاربونه: أهم كفار؟!!

فأجاب: هم من الكفر فروا.. مع أن هؤلاء الخوارج في عصر الإمام علي - كانوا أسرع الناس إلى التكفير ، لكن حاشا لأمير المؤمنين العظيم علي بن أبي طالب أن ينزل إلى مستوى «الظلم» لخصومه الذين لم يجدوا وسيلة لحربه إلا حاربوه بها حتى قتلوه!!

- وما قيل عن فلاسفة الإسلام في القديم وشكّل تيارًا باقيًا يتشبّثُ به أصحابه ، يقال - أيضًا - عن كثير من دعاة النهضة الإسلامية المعاصرة ، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا..!!

- إن تيارًا جارفًا يتشبث بالطعن في هؤلاء ، ورميهم بشتى التهم ، وعدم التماس أى عذر لهم ، وكأنه من المفروض أن يكونوا معصومين في فكرهم ودعوتهم وحركتهم ، فلا يخطئون في اجتهاد ، ولا يرتكبون أي شيء مما يرتكبه البشر ، ولا يقومون بعمل - ولو واحد - يحسب عليهم... وهم إن فعلوا شيئا من ذلك - ولا بد أيفعلوا - فالويل لهم ولن يغفر لهم الحقدة من البشر - متعصبين كانوا أو ملحدين - فالله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والأخطاء ، لكن هؤلاء الملاحدة والمتعصبين لا يغفرون !!

- لقد آن للمسلمين أن يكفوا عن هذا المنهاج القائم على الترصد كما أنه يجب عليهم بعد هذه التجارب التي مرت بهم أن يفسحوا عقولهم ونفوسهم للاجتهاد في أمور الدنيا والدين واعين بالمنهج الإسلامي الرشيد ، ملتمسين الأعذار لعثرات العقول والأقلام.

وسواء كان بحثهم في علوم الدين أو علوم الدنيا فالنيّة والغاية يجب أن يتجها إلى عبادة الله وخدمة الإنسان ، وعليهم أن يلتزموا بالمعيارية الإسلامية المؤمنة بعالمي الغيب والشهادة وبالعقلانية الإسلامية التي توجت ألا يكون هناك تناقض بين النقل الصحيح والعقل الصحيح ، ولا بين شريعة الله الإلهية وحكمة الإنسان المعبرة عن جهاده في سبيل الحقيقة ، وفهم السنن الكونية والاجتماعية...

***

الاجتهاد في أمور الدين :

يعّد (منهج الاجتهاد) من أبرز ميزات التفكير الإنساني العلمي.. وعندما يكون التفكير – بلا منهج أو منطق معقول يصبح تعبيرًا شعريًا ذاتيًا غير صالح للتعميم والتقعيد وتحقيق الفائدة العامة..

ومن هنا فلا بد – إسلاميًا – من أن يكون التفكير مرتبطًا بالمنطق والعقل .. العقل المحايد المنصف الجماعي.. المنضبط.

– والاجتهاد في أمور الحياة العامة مفتوح بلا ضوابط إلا ضوابط المصلحة والمنفعة والأخلاق الإنسانية.. أما الاجتهاد الاصطلاحي المرتبط بدين – هو الإسلام – فلا بدّ من أن يكون

مقيدًا بالنصوص الإسلامية القطعية الثبوت والدلالة.. وأن يكون مقيدًا باللغة المنضبطة بالضوابط المعجمية والمجمعية.. أي «القاموسية» المعتمدة ، والمقدرة أيضًا من علماء المجامع أو اللغة.. وإلا أصبحت لغة خاصة صوفية غير قابلة للتعميم والاستعمال الاجتماعي.. فلا اجتهاد مع النص.. وإلا أصبح اجتهادًا غير إسلامي ولا اجتهاد بدون لغة مشتركة يفهمها الجميع فهمًا واضحًا وفهمًا واحدًا يحتكمون إليه ويتعاملون به ومن البديهيات التي يؤمن بها كل مسلم أن الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد عليه السلام ، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما المصدران لكل جانب عقدي أو تشريعي في الإسلام. والفرق بين التصورات الإسلامية وغير الإسلامية توزن بحسب انطلاقها من هذين المصدرين أو ابتعادها عنهما ، فضلًا عن تلك الاجتهادات التي لا تنطلق منها حتى وإن زعم أصحابها أنهم مجتهدون مسلمون!!

- وليس من صلاحيات أي مسلم - كائنًا ما كان - أن يتعدى على أصول الإسلام الثابتة وهي القرآن وسنة الرسول ﷺ القولية والفعلية والتقريرية.

وسواء أطلق على هذا الاعتداء اسم التطوير أم المعاصرة أم

التحديث ، أم غير ذلك من المصطلحات ، فإن هذا الاعتداء أمر منكور لا يقبله الإسلام.

وليس في الإسلام حق مقدس لفرد ما ، كما لا توجد (مجامع مقدسة) تملك حق حذف النصوص أو الاعتداء على دلالاتها الظاهرة الواضحة. وكل ما عرفه المسلمون من صور الاجتهاد فإنما كان اجتهادًا قائمًا على أساس أصلى الإسلام الثابتين ، وفي ضوئهما ولم يكن شيئًا إضافيًا لهما أو خروجًا عن ظلالهما وإشعاعاتهما.

- وفي تقديرنا أن هذا الفهم الواضح لطبيعة النظام الإسلامي وأصوله قضية لا يماري فيها عقل مسلم ، فضلا عن فقهاء الأمة المجتهدين.

وإنما مناط الخلاف هو ما سوى القرآن والسنة مما اصطلح على تسميته «بالأصول الفقهية الاجتهادية» أو «الأصول التبعيّة»!!..

وهذه الأصول تطورت وتراكمت حتى أصبحت علمًا قائمًا بذاته تدور حوله مجموعة من العلوم الفرعية فاعتمادًا على القرآن والسنة وانطلاقًا منهما أبرز العقل الإسلامي في أدوات أو أصولًا فقهية مؤصلة للاجتهاد ومعينة على الاستنباط

الصحيح..

وهذه الأصول هى:

١- الإجماع (وهو اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد ﷺ في عصر من العصور على أمر من أمور الدين أو الدنيا).

٢- القياس (وهو مساواة أمر لآخر في علة حكم له شرعي لا ندرك من نصه بمجرد فهم اللغة).

٣- الاستصحاب (وهو الحكم على الشيء في زمن متأخر بما كان قد حكم به في زمن متقدم حتى يثبت دليل على تغيير الحكم لعلة طارئة).

٤- المصلحة المرسلة (وهى الوصف الذي يكون في ترتيب الحكم عليه جلب منفعة للناس أو درء مفسدة ظاهرة أو خفية عنهم).

٥- سّد الذرائع والحيل (وهى إغلاق المنافذ التي تكون في ذاتها جائزة ، لكنها تؤدي إلى ممنوع شرعاً).

٦- الاستحسان (وهو العمل بأقوى الدليلين في ضوء الترجيح بين الأدلة والأقيسة واستثناء مسألة من أصل عام لاعتبارات خاصة وما إلى ذلك مما يتصل بحس المسلم وفقهه).

٧- العرف (وهو ما تلقته طباع الناس بالقبول واستقرت عليه في نفوسهم وصار عند جميعهم شائعًا قولًا كان أو فعلًا ، بحيث لا يعارض أمرًا من أوامر القرآن أو السنة الشريفة ، ومثل العرف العادة فهما شبه مترادفين).

٨- شرع من قبلنا وهل يصلح شرعًا لنا.

٩- فتوى الصحابي (وهل هي ملزمة أم يستأنس بها فقط ؟).

• فهذه الأصول الفقهية – وغيرها مما يلحق بها – هي مناط الخلاف بين الفقهاء والمجتهدين ، وهي ما يحاول بعضهم في أيامنا تلك تطويرها وتجديدها ، بحيث تستوعب مستحدثات عصرنا الكثيرة ، لكن بعضهم يرى أن «التجديد أو التطوير» في هذه الأصول لن يعدو أن يكون عملية «شكلية» لأن هذه الأصول يمكنها أن تستوعب أية وقائع مستحدثة وهم – من خلال هذا البحث – يسألون دعاة التطوي أو التجديد ، هاتوا لنا وقائع لا تنتظمها هذه الأصول؟

وثمة فريق ثالث يرفض «التجديد» بالجملة ويرى أن هذا المصطلح سُلَّم للاعتداء على حقائق الإسلام الثابتة ، وأن الأمر سيتدرج من الفقه إلى الشريعة ، ومن الشريعة إلى العقيدة وبها

أن هذا البحث محايد – في حدود الاجتهاد المقبول – فنحن نحترم كل الآراء ما دامت كلها في إطار الأصلين الثابتين وهما القرآن الكريم كتاب الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[1] .

وسنة الرسول (وهي ما صدر عنه ﷺ قولًا كان أو فعلًا أو تقريراً) فالكتاب والسنة أصل الأصول. أما ما هو خارج عن كتاب الله وسنة رسوله ، فنحن لا نسميه اجتهادًا ، بل هو انحراف عن الإسلام ، وعند هذا الحد فنحن لسنا بمحايدين بل نحن ندور مع كتاب الله وسنة رسوله – إن شاء الله – ولا نحيد عنهما ، ولا نقدم عليهما سواهما فلا حياد ، ولا حيدة لمسلم عن كتاب الله وسنة رسوله.

واعتمادًا على الكتاب والسنة برز علم أصول الفقه – كما ذكرنا – لينمي في الفقيه المسلم ملكة الفهم الصحيح ، والتعامل الموضوعي مع الأدلة الشرعية ، وقد أصبح هذا العلم يمثل: (المنطق الإسلامي) كما يمثل (فلسفة التشريع الإسلامي) الذي تجلت فيه أصالة هذا الفكر وإبداعه واستقلاله.

---

(١) فصلت: ٤٢.

وقد ألف فيه الإمام الشافعي كتابه العظيم (الرسالة) ثم توالى المؤلفون من أمثال أبي بكر الجصاص ، وأبي زيد عبيد الله بن عمر وإمام الحرمين الجويني وأبي حامد الغزالي وتوالت المؤلفات حتى العصر الحديث.

ومع بدايات عودة الأمة إلى ذاتها ودينها وحضارتها في العصر الحديث ، ظهرت أهمية الاجتهاد ، ذلك الباب الذي لم يطرقه المسلمون – كما ينبغي – منذ عصور طويلة ، وفي بعض بلدان العالم الإسلامي ظهرت محاولات « تقنين الشريعة » وظهرت « مجامع فقهية » وفرض الاجتهاد نفسه كحقيقة مهمة ، وتنادى مفكرو الإسلام في كل مكان بضرورة الاجتهاد ، في الفروع ، ثم أصول الفقه الاجتهادية.

والحقيقة أننا في حاجة إلى إدراك أهمية علم أصول الفقه ، واعين بأن ثمة قضايا شائكة امتنع كثير من المسلمين عن الولوج فيها ، بل حورب بعض العلماء الأفذاذ الذين ناقشوها بقوة وجرأة.

وما زالت هذه القضايا موضه شدّ وجذب ، بيد أنها لا تقلل من ضرورة التعامل العصري الواعي مع علم أصول الفقه.. الذي يمثل – بحق – منطقنا الإسلامي وفلسفتنا الإسلامية

الأصلية.

يقول الدكتور محسن عبد الحميد المفكر الإسلامي العراقي في حديثه عن «أزمة المثقفين تجاه الإسلام» :

إن علم أصول الفقه ، هو فلسفة الإسلام الواقعية التي تراقب الحياة التي تتحرك فيها الخلافة الإنسانية على الأرض ، كي لا تنحرف فتضلّ وتؤدي إلى فقد الموازين وضياع الفطرة وحيدة العقل بين الآراء والاجتهادات التي تفتقد إلى محور ثابت يتحاكم إليه ، فهو على ذلك أفضل ما أنتجته الحضارة الإسلامية وإن علم أصول الفقه قام بدور عظيم في ضبط حركة التغير الاجتماعي عبر التاريخ وأعطى للحضارة الإسلامية في مناحي الحياة كافة ملامحها الواضحة.

ولقد قامت عقليات جبارة في تاريخ الإسلام باستباط الضوابط الأصولية ، والقواعد الفقهية من نصوص القرآن والسنة النبوية ابتداء من الشافعي ومرورًا بمتكلمي المعتزلة والأشاعرة الأوائل وفلاسفة الفقهاء العلميين من أمثال الكرخي والسرخي ونجم الدين الطوفي وأبي الحسين البصيري وانتهاء بالباقلاني وإمام الحرمين والآمدي وابن حزم والفخر الرازي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي والتفتازاني وغيرهم ، ولقد

ضبط هؤلاء العباقرة وغيرهم هذا العلم بكلياته وجزئياته حتى ليظن الإنسان أنه لم تبق ثغرة غير مسدودة ، ولا بقيت مسألة غير مطروحة.

وعلى الرغم من ضيق مجال التجديد في هذا العلم العقلي العظيم المستنبط من الوحي المعصوم ، إلا أنني أرى أن التغير الهائل في الحياة الذي وجد في القرن العشرين ، وما يمكن أن يحدث في المستقبل ليشكل صراعًا واقعيًا متشابكا نحتاج معه إلى إعادة النظر في بعض القضايا المتصلة بالأصول التابعة للقرآن والسنة ، خاصة تلك التي يمكن أن تتحرك في اتجاهات متعددة نصل إلى نهايتها ، بقدر ما يحقق هذا الأمر حل عقد الصراع الفكري الواقعي الجيد لينتقل التشريع الإسلامي من التجريد والتعطيل إلى مجال الواقع والتنفيذ.

- فمثلا: كيف نستفيد من أصل الإجماع في المؤتمرات الفقهية الإسلامية ، من حيث هو كاشف في عصر ما عن مقاصد النصوص ومآلاتها ؟

- هل يمكن أن ينسخ إجماع مبني على المصلحة إجماعًا سابقًا في عصر متقدم في ضوء القاعدة الفقهية المشهورة «حيثما كانت مصلحة المسلمين فثم شرع الله» .

(وقد تتعدد المصالح بتجدد العصور)؟!

وما موقفنا اليوم من الأحاديث النبوية الشريفة المبنية على الأعراف التي كانت سائدة أيام الرسول ﷺ ؟ وهل من الحتم أن نتمسك بظاهرها إذا تبدل العرف ، وهل يكون تحقيق العرف الجديد هو السنة باعتبار أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا ؟

ثم ما زلنا نحتاج اليوم إلى البحث العميق عن الحاجة الشديدة هل تنزل منزلة الضرورة أم لا؟ كما ذهب إلى ذلك الحنفية. ولم نزل بحاجة إلى بحث أعمق في مسألة «تخصيص عموم القرآن» بخبر الآحاد ، وهي النظرية الأصولية التي رفضها الحنفية ، وما موقف الأصوليين في الوقت الحاضر من نقد المستند في الحديث؟

إذ نشعر بان المحدثين قد صبوا اهتمامهم على نقد السند وأتوا في ذلك بقواعد نفيسة جدًّا ، ولم يهتموا بنقد المتن بنفس درجة اهتمامهم بنقد السند.

- وإذا كانت ظروف المجتمع الإسلامي في العصور المتأخرة قد حالت بين هذه الآراء وبين الوصول إلى مواقع متقدمة من موضوعات علم أصول الفقه..

فـإن ظـروف العـصر المتجـدد تـدعونا إلى دراسـة هـذه الموضوعات من تراجع إمكانية دفع تلك المسائل إلى موقعهـا في حركة الحياة المتغيرة المعاصـرة ، وأنـا لا أدعـو إلى فـرض الآراء والقواعد مسبقًا وإنما أدعو إلى التركيـز علـى دراسـة «الأصـول التبعية» لعلنا نستطيع أن نوجد قواعد وقضايا جديدة تـشترك في إحياء حركة الفكر الأصولي والفقهي في الإسلام ، حتى يخـرج هذا الفكـر مـن إطـار النظريـات المجـردة إلى الوقـائع الملموسـة القادرة على مواجهة التطورات العلمية المعاصرة.



مصطلح الاجتهاد ونطاقه :

إذا كان للاجتهاد في اللغـة معنـاه الـذي يـروج علـى ألـسنة الناس فإن معناه في الاصطلاح الأصولي لم يكـن مقطوعًـا عـن المعنى اللغوي بل سـيكون أكثـر تحديـدًا وأكثـر ارتباطًـا بالمجـال العلمي الذي يدور فيه.

- ويقصد بالاجتهاد في اللغة بذل الوسـع والطاقـة في طلـب الـشيء ليبلـغ المجهـود ويـصل إلى النهايـة ، وفي حـديث معـاذ المشهور ترد عبارة: «أجتهد برأيـي» أى أبـذل وسـعي في طلـب الحـق ، وفي الاصـطلاح يـرى الأصـوليون أن الاجتهـاد هـو

استفراغ الفقيه الجهد والوسع لتحصيل ظن بحكم ، أو علم به - كما يرى الإمام الغزالي ، وطريق الوصول إلى تحصيل الحكم الشرعى يكون عن طريق بذل الجهد في إرجاع الواقعة إلى شبيه بها عن طريق «القياس» عليها أو اللجوء إلى «مقصد» من المقاصد الشرعية تندرج الواقعة تحته ، أو علة مشتركة مع حكم آخر.

- ويستعمل في مجال (الاجتهاد) غير (القياس) مصطلح (الرأى) ويقصد به الأصوليون (الأثر) والأثر هو النص من الكتاب أو السنة ، والرأي هو الاجتهاد بالعقل على ضوء النص ، وهو لا يختلف كثيرًا عن الاجتهاد ، وهو أهم من القياس ، والرأي منه ما هو باطل كالرأي بالهوى وبدون علم كاف ومنه ما هو مشتبه فيه ، ومنه ما هو صحيح... ويتصل بمصطلح الاجتهاد أيضًا مصطلح (الفتوى) ويقصد به التنبيه والإعلام بما يشكل من الأحكام الشرعية .. والفتوى لا تكون إلا حصادًا للقدرة على الاجتهاد وعلى استنباط الأحكام بالرأي أو القياس ، فهي نتيجة لا يستحقها إلا من توافرت له شروط الأهلية للاجتهاد.

والحق أن هذه المصطلحات أقرب ما تكون إلى الترادف ، وقد استعملها علماء وفقهاء كثيرون ثقات على أنها مترادفة ،

والفروق بينها فروق دقيقة اللهم إلا (الفتوى) فهي مصطلح مستقل ، وله مدلوله الخاص.

وإذا كان القرآن والسنة الصحيحة هما مصدر الاجتهاد ، وهما مرجعية كل مسلم مهما اختلفت ثقافته ودرجة وعيه – فإن الاجتهاد – بالتالي يدور في تلك المنطقة التي لا تكون قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

- وقد عمد الأصوليون إلى محاولة حصر أسباب الاختلاف بين الفقهاء ، ووصلوا إلى أن أهم هذه الأسباب هي :

١- الاجتهاد في معرفة المراد من النص إذا لم يكن قطعي الدلالة.

٢- الاجتهاد في دفع التعارض بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض.

٣- الاجتهاد في الأدلة ظنية الثبوت.

٤- الاجتهاد في أقوال الصحابة.

٥- اختلافهم فيها إذا نقل عن الصحابي رأى بخلاف ما رواه.

٦- اختلافهم في العمل بالحديث الذي كذب الأصل الفرع فيه.

٧- اختلافهم في قول الصحابي: هل هو حجة مطلقًا أو لا؟

٨- اختلافهم في الأصول الأخرى كالقياس والاستحسان واستصحاب الأصل والمصالح المرسلة وغيرها.

٩- الاجتهاد في إلحاق مسكوت عنه بمنصوص على حكمه.

١٠- تطبيق القواعد الكلية على جزئيات الوقائع.

١١- النظر في أعراف البلاد.

١٢- اختلافهم من القراءات الشاذة.

١٣- اختلافهم في خبر الواحد هو حجة أم لا؟

١٤- اختلافهم في الحديث المرسل.

ونستطيع أن نقول أن تعدد الأماكن واتساع الدولة الإسلامية ، والتعامل مع أنماط مختلفة من المدنّية ، ومحاولة التكيف أحيانًا مع الواقع والوصول إلى الحل الأيسر اعتمادًا على أنه عليه السلام ما خُير بين أمرين إلا واختار أيسرهما.. كل هذه البواعث كانت إضافات فرضت على العقل المسلم أن يجتهد في كل الظروف.

وفي العصر الحديث ضغطت مشكلات كبرى فكان لا بد من تحريك العقل المسلم تحريكًا يتواءم مع حجم التحديات وكانت

المجالات الاقتصادية والطبية والاجتماعية من أهم مجالات التحدي ، ففازت بكثير من الاجتهادات وظهرت في دنيا الواقع مؤسسات اقتصادية ومالية إسلامية تشرف عليها هيئات رقابية شرعية ، كما ظهرت دراسات تتحدث عن الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي[١] ، وظهرت دراسات أخرى تقاوم النظريات الاشتراكية في المجالات الاجتماعية ، ولا نستطيع أن ننكر بعامة وجود نهضة اجتهادية فقهية في العصر الحديث.

● ويُعدّ الاجتهاد الجماعي المعاصر استئنافًا لعصور الازدهار التشريعي الإسلامي ، فقد روى مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب قال: قلت يا رسول الله : الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه سنة ، قال: «**اجمعوا له العالمين – أو قال: «العابدين – من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد**».

وهكذا كانت طريقة الخلفاء الراشدين فقد وجدت لهم مجالس شورى عامة ، بالإضافة إلى مجالس الشورى الخاصة

---

(١) انظر كنموذج رسالة للدكتور محمد فاروق النبهان، بهذا العنوان، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤هـ .

فكانوا يجمعون في المسجد النبوي رؤساء الناس من ذوي الرأي ، فيستشيرونهم في الأمور الخطيرة كما فعل عمر في جمع الصحابة للبحث في قسمة موارد العراق وغيره من الأراضي المفتوحة عنوة ، وانتهى رأيهم بالاتفاق على إبقاء الأرض بيد أهلها وعدم قسمتها بين الفاتحين ، ويبرز هذا المنهاج في أعمال عمر المتكررة ، فكان إذا نزلت نازلة ليس فيها نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم ومما كتبه لشريح: «فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ، ولا بسنة رسول الله ﷺ فاقض بما أجمع عليه الناس» وطريق التشاور العلمي والاستنباط من الأدلة يعتمد على أمرين : أصول الفقه والقواعد الفقهية الكلية ، والقواعد مبنية على فهم «مقاصد الشريعة ، والمقاصد مبنية على اعتبار المصالح ، والمصالح معتبرة من حيث وضع الشرع ، لا بأهواء الناس». وهذه الشورى العلمية على النحو الجماعي أخذ بها المالكية في تعديل الأحكام الفقهية عندما يتبدل عرف الناس وتتغير مصالحهم وهي أيضًا ما يجدر أن نأخذ به في العصر الحديث ، ولعل فيما قامت به رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من إنشاء (المجمع الفقهي) مؤشرًا على المعالم الجديدة والصحيحة لطريق الاجتهاد وكذلك

«الأزهر الشريف» ومنظمة المؤتمر الإسلامي!!

* * *

الاجتهاد.. والدين الخاتم:

عندما يقول الله في القرآن الكريم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

ويقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

فإن ذلك يعني من وجهة نظرنا أن الله أودع في القرآن كل الأصول والكليات والمعالم التي تكفي للسير في طريق الحياة إلى يوم القيامة – ما دام الإسلام هو الدين الخاتم – شريطة أن يعمل المسلمون عقولهم بحيث تتفاعل هذه العقول مع الكليات والتوجيهات التي جاء بها القرآن الكريم صالحة إلى يوم القيامة.

وهذا يعني أن الاجتهاد في كل عصر فرض، وأن تاركه أو الداعي لإغلاقه جاهل أخلد إلى الأرض!!

– إن الاجتهاد في الفقه باب فتحه الله. والباب الذي فتحه

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) المائدة: ٣.

الله لا يملك أحد إغلاقه!!

والفقه – بدون اجتهاد – هو حكم على شريعة الله بأنها غير صالحة لكل زمان ومكان وهو تضييق على الناس يؤدي إلى تفلتهم من دين الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] .

في عبارته التي تعطي الاجتهاد الفقهي حقه الدائم في الاستمرار إلى يوم القيامة.. «إن شريعة الله كاملة مطابقة للعقل والحق والعدل ، فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلته وأسفر صحبه بأي طريق كان ذلك من شرع الله ودينه ، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد ، ولكن بّين أن مقصود إقامة الحق والعدل بأي طريق كان» .

إن لقضية (الاجتهاد) جذورًا تاريخية مرتبطة بدور الفقه في الحضارة فعلم الفقه من وجهة نظر تاريخية – هو الطابقان الاجتماعي والاقتصادي في بناء الحضارة الإسلامية – وبالتالي ، فإن وصول هذا العلم إلى تقديم إطار ملائم متناغم مع الجوانب الحياتية يشكل بعدًا من أبعاد قضية الحضارة الإسلامية ، والمقياس في عطاء هذا العلم ينحصر في الجوانب الملحة التالية:

أ- مدى ارتباط هذا العلم بالأرضية اليقينية الإسلامية التي

(١) الحج: ٧٨ .

لا جدال في أنها خلاصة الكليات التي يمتاز بها الإسلام.

ب- مدى قيادة هذا العلم - ولا أقول مدى تعبيره - للدورة الحضارية التي تمر بها الأمة.

ج- مدى إسهام هذا العلم في تحقيق الشخصية الحضارية المتميزة وفي تقديمها للإنسانية كحضارة ذات هوية، وذات فعالية.

والذين يتتبعون الأسباب الحقيقية لبعض الاتجاهات الفقهية التي انتظمت أعلامًا أفذاذًا من أقطاب تاريخنا، سوف يكتشفون العوامل الحقيقية الحضارية التي جعلت هؤلاء الأفذاذ المجتهدين يقفون في جانب، والفقهاء المذهبيين التقليديين يقفون في جانب آخر، ومن هذه الأسباب:

- إن الفقه المذهبي قد تخطى دوره في البناء الاجتماعي والاقتصادي المعاش المنظور ليصبح عقيدة وهيكلًا أيديولوجيا يطغى على الأصول الاعتقادية والفكرية. لقد تحول الرأي إلى عقيدة، وتقدمت النافلةُ الغرضَ والفرعُ الأصلَ.

- إن الفقه ممثلا في بعض الفقهاء خلال بعض العصور - قد خان دوره، وأصبح بجموده أحيانا، وبعدم ارتباطه بالجذور أحيانًا، لعبة سياسية تُقَادُ ولا تقود وتحكم ولا تحكم.

- إن الفقهاء في بعض العصور فرضوا آراءهم الفرعية بصورة ليست من طبيعة الإسلام ، فانقلبوا من حارس للبناء الاجتماعي والاقتصادي إلى تابع للأوضاع المختلفة التي يحركها البناء السياسي ، يعطونها التبرير الجدلي ، ويلوون أعناق النصوص من أجلها ومن أجل تسويفها.

ومقام الاجتهاد - اليوم - لم يعد مقام هذه الفتاوى الجزئية التي يستطيع أن يتصد لها آلاف الفقهاء ، إن التحدي أكبر من ذلك ، فأبنية المسلمين الاقتصادية والاجتماعية في ظل عالمنا المركب تحتاج إلى (مجامع فقهية) وإلى صور متكاملة من الاجتهاد الجماعي الذي يستطيع أعضاؤه صياغة حياتنا صياغة إسلامية معاصرة ، ومنح حياتنا البديل الإسلامي الكامل ، في شتى الجوانب الفقهية اقتصادية كانت أو اجتماعية ، وبما أن عصرنا (عصر مؤسسات) فمن الضروري أن تنشأ مؤسسات فقهية قادرة على مواجهة العصر ، حتى لا تغزونا الأفكار التشريعية والنظم الاقتصادية والاجتماعية المدمرة ، و(الاجتهاد) هو سلاحنا الأكبر في معركة التحدي ، ومن هنا استحق أن نوليه الاهتمام الذي يستحقه.

التعزير: من أبواب الفقه المتطورة دائما :

يقصد بالتعزيز تلك العقوبة التقديرية التي يفرضها القاضي

أو الحاكم ، بحيث تكفل الردع ، عندما لا يقع الخطأ تحت حدّ من الحدود المنصوص على عقوبتها...

- ويرى الفقهاء أنّ التعزير من أهم أبواب الفقه (العقوبات) المتصلة بالتطور فهو - أكثر من الحرابة - عقوبة مفتوحة متطورة يستطيع القاضي أو الحاكم الاتكاء عليها لمقاومة كل الموبقات الأخلاقية والاجتماعية ، بيد أن هذه العقوبات لا يجوز أن تصل إلى الحدّ (إلا في حالات الضرورة القصوى) لكن الشيخ «نجيب المطيعي» له رأي آخر .. إنه يقول:

لقد تردد أخيرًا أن التعزير الذي للسلطان أن يقدره وأن يقضي فيه قد يبلغ حد القتل ، ولا أدري من أين أتوا بهذه المجازفات التي لا تتفق مع كتاب ولا سنة فإن التعزير لا يبلغ الحد بحال من الأحوال ، فلا يصح في الجلد أن يصل إلى الثمانين ؛ لأن الثمانين حد حده الله تعالى في القذف. وفي الحديث «من بلغ بما ليس بحد حدًّا فهو من المعتدين» - (رواه البيهقى عن النعمان بن بشير ﷺ).

فلا يصح في التعازير أن يبلغ العقاب مبلغ حد من حدود الله تعالى ، والذين يزعمون أن للسلطان أن يعزر حتى الموت إنما يعطون السلطان سلطة مطلقة لم يعطها الله لنبيه ﷺ لقوله

تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [(١)].

بل المنصوص عليه أن السلطان إذا عزر إنسانًا فمات كان عليه الضمان، ولحديث أبي بردة أن النبي ﷺ قال: «**لا يجلد أحد فوق عشر جلدات في غير حد من حدود الله تعالى**».

فلذا إن عزر الإمام رجلًا فمات وجب ضمانه لما روى عمرو بن سعيد عن علي رضي الله عنه أنه قال: «ما من رجل أقمت عليه حدًا فمات فأجد في نفسي أنه لا دية له إلا شارب الخمر فإنه لو مات وَدَيتُهُ، لأن النبى ﷺ لم يسنّه».

فالقول بأن للسلطان أن يعزره حتى الموت جهل ومجازفة وقول على الله بغير علم، نعم قالوا: إذا مات أثناء التعزير وكان الآلة من شأنها أن لا تقتل ولا تكسر، ولم يبلغ ضربه حدًّا حدّه الله ورسوله لا ضمان - وهذا صحيح، لأنه حينئذ يكون موته لا من التعزير، وإنما يكون موته حتف أنفه بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره!!

اضمحلال الاجتهاد في بعض العصور:

لم يخلُ عصر من العصور من مجتهدين.. حتى ولو كانوا مجتهدين مقيدين بمذهب - لكن - مع الاعتراف بهذه الحقيقة -

(١) النساء: ١٠٥.

وُجدت عوامل تاريخية كانت سببًا في اضمحلال الفكر الإسلامي بعامة والاجتهاد الفقهي بصفة خاصة..!!

لقد خضع الفكر الإسلامي لما خضعت له سائر العلوم ، فمع جنوح الأمة الإسلامية إلى الكسل العقلي والدخول في عصر المتون والشروح ، أصاب الفقه الإسلام الجمود الذي أصاب بقية نشاط العقل المسلم ، وبالتالي فإن التخلف الحضاري للأمة الإسلامية هو أبرز أسباب تخلف الفقه وتوقف الجهاد. ويضاف إلى هذا السبب الرئيسي أسباب أخرى حصرها العلماء فيما يلي:

١- تدون المذاهب ، فقد تم تدوين الفقه فسجل العلماء كل مذهب اجتهادات الأئمة في الحوادث التي أفتوا فيها واعتقد العلماء أن ما دونه كاف لسد حاجة المسلمين ، فوقفوا أنفسهم على ما بأيديهم من كتب الأئمة المجتهدين.

٢- التعصب المذهبي ، فقد التزم كل عالم من العلماء مذهبًا خاصًا وقف نفسه لدراسة أصوله وترتيب فروعه ، ودعوة الناس إلى المذهب الذي اختاره واعتقاد الحق فيما جاء به مذهبه وحده ، وقد غالى بعضهم في هذا ، فقد نسب إلى أبي الحسن الكرخي قوله: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو

منسوخة وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ...» وهي مبالغة شديدة لا يقرها الإسلام.

٣- وقد زاد من تعطيل عجلة الاجتهاد أن كتب علماء المذاهب مليئة بالتهجم على أئمة المذاهب الأخرى ، مثالًا لذلك ما قاله الغزالي في كتابه (المتحول) وما قاله الجصاص الحنفي في كتابه (أحكام القرآن) ، وما قاله ابن حزم الأندلسي في كتابه (المحلى) وغيرهم..

٤- وكان من أسباب ازدياد الصراع بين المذاهب أن القضاة في بعض العصور كانوا يعينون للقضاء على مذهب معين يلتزمونه في أحكامهم ، ولا يجوز لهم الخروج على منصوصات علمائه ، وكان التعصب المذهبي والاستشهاد بذلك من عوامل تقييم الفقيه وتزكيته.

٥- شيوع التخوف بين العلماء في تلك العصور ، مما جعل الكثير منهم يحجم عن الاجتهاد خوفًا من أن يكيد له أعداؤه ويرموه بالابتداع ، فوقف عند أقوال الأئمة المتقدمين.

هذا بالإضافة إلى شيوع عوامل الكسل والفتور التي عادة ما تصاحب قرون التخلف.

بيد أننا – كما ذكرنا – نحمد الله على وجود نهضة اجتهادية

في العصر الحديث ، ولعل الاجتهاد الجماعي يمثل أعلى ما فيها ، ولعله يتطور فتصبح في كل قطر جماعة اجتهادية جماعية ، ويصبح هناك مجلس إسلامي يمثل المسلمين جميعًا في تقديم الآراء التي تصلح لكل البيئات والظروف والأكثريات والأقليات.

الاجتهاد مفتوح.. ولم يغلق قط :

شاع بين عامة المسلمين – وربما بين بعض مثقفيهم – أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وأن الحضارة الإسلامية قد أصبحت عاجزة عن مواجهة العصور – حاشا لله !! – وهى فكرة شاعت خطأ بين جمهور المسلمين .

هذه الفكرة هي أن باب الاجتهاد قد توقف بعد القرن الرابع الهجري. ومصدر الخطأ أن القائلين بهذه الفكرة لم يفرقوا بين الاجتهاد الذي يصل بصاحبه إلى تكوين (مذهب فقهي) وبين (الاجتهاد الحر) الذي يجد صاحبه نفسه يلتقي مع مذهب من المذاهب ، حتى دون أن يقصده ، وحتى دون أن يكبل خطواته مسبقاً.

– نعم : لقد كانت المذاهب قد تكونت ، فتوقف الوصول إلى (مذهبية فقهية تكاملية) – ليس عن عقم أو عجز ، ولكن

لأن طبيعة الفتوى المتأرجحة بين الحل والتحريم والكراهة قد انتظمتها المذاهب السابقة ، فالالتقاء مع واحد منها (نهاية حتمية).. أما الاجتهاد الحر وأما ظهور نوابغ مجتهدين وسموا بالانتهاء المذهبي مع أنهم لم يتعمدوه.. أما هذا وذاك فقد استمرا في حضارتنا ولم ينقطعا أبدًا ، وكيف يقال بالانقطاع وابن حزم الأندلسي قد ظهر في القرن الخامس الهجري (توفى ٤٥٦هـ)؟

وكيف يقال بالانقطاع وقد شهدت القرون - بعد الرابع - أعلامًا كثيرين يعدون بالمئات كانت لهم اجتهاداتهم الخطيرة من أمثال شمس الأئمة الحلواني إمام أهل بخارى وصاحب المبسوط (ت ٤٤٨هـ) والسرفسي شمس الأئمة (٥٠٠هـ) والإمام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) والإمام الرافعي (ت ٦٢٣هـ) وأبي الفرج بن الجوزي (ت٥٩٦ هـ) وعبد الله العبادي صاحب الفروق (ت ٦٣٠هـ) والبغدادي سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ) وابن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) وأبي الفضل بن رشد (ت ٦٧٥هـ) وأبي الفتح القشيري (ت ٧٠٢هـ) وأبي الحسن الآمدي (ت ٦٣١هـ) والعز بن عبد السلام سلطان العلماء (ت ٦٦٠هـ) والإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) والإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وتلميذه ابن القيم صاحب أعلام الموقعين ، ونجم الدين الطوخي (٧١٦هـ) وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)..

وابن حجر العسقلاني شارح البخاري ، وتلميذه السيوطي صاحب (الردّ على من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض) وتستمر حلقات المجتهدين حتى تصل إلى القرنين الأخرين ، فنجد الزبيدي الهندي ، وولى الله الدهلوي الهندي ، والإمام الشوكاني والصنعاني وابن باديس الجزائري والدرديري والعدوي ، والشيخ الشرقاوي ، والإمام محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا والشيخ شلتوت ، والإمام محمد أبو زهرة والشيخ المودودي وأبو الحسن الندوى والشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ ناصر الدين الألباني ، والشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق .. وغيرهم.

إن هذه المسيرة تفيدنا أن الاجتهاد الإسلامي باب لا يمكن أن ينقطع أو يغلق بإذن الله .. وهو من الأدلة الكبرى على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .. وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] صدق الله العظيم .

* * *

---

(١) سورة سبأ الآية (٢٨) .

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * *